محمد الفهد العيسى

الدرعية

قاعدة الدولة السعودية الأولى



محمد الفهد العيسى

الدرعية

قاعدة الدولة السعودية الأولى

تقديم
حمد الجاسر

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

العيسى، محمد الفهد

الدرعية القاعدة الأولى للدولة السعودية .

... ص؛ ... سم

ردمك ٨-١١٩-٢٠-٩٩٦٠ .

١ - السعودية - تاريخ ٢ - الدرعية - تاريخ أ - العنوان

ديوي ٩٥٣,١١ ١٥/٠٧٦٥

ردمك ٨-١١٩-٢٠-٩٩٦٠ . رقم الإيداع : ١٥/٠٧٦٥

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ/١٩٩٥م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



الحمـد لله حَقَّ حمده، والصـلاة والسـلام على سيدنـا محمد وعلى آلـه وصحبـــه، وتـــابعي نهجه، إلى يوم الدين .

مضامين الكتاب

الموضوع	الصفحة
ما أحوجنا إلى أمثال هذه المباحث بقلم حمد الجاسر.	٧
بين يدي القارئ.	١٠
الدرعية : لمحة جغرافية.	١١
العروض :	١١
العارض :	١٣
حول (وادي سدير).	١٩
العرض : أوديته، قراه.	٢٣
سكان العرض قديماً	٢٩
كيف نشأت مدينة الدرعية ؟	٣٣
مانع المريدي وإنشاء (الدرعية).	٣٧
الدرعية تحت حكم آل سعود.	٤٣
طور جديد في حياة الدرعية.	٤٤
الدرعية مركز الحركة الإصلاحية.	٥٠
بين (الدرعية) و(الرياض) و(الأحساء).	٥١
استقرار للدعوة وانتشار. . ثم انتصار.	٥٣
ملخص الغزوات التي قام بها الأمير عبد العزيز وابنه سعود.	٥٦
تدخل خارجي في شؤون الدرعية.	٥٨
وفاة الإمام المجدد الشيخ محمد	٦٠
ثويني تؤوِيه (الدرعية) ثم يعيد الكرة لحربها !	٦٢
شريف مكة يحاول، ثم يصالح بحذر.	٦٤
والي بغداد يغزو جيشه الأحساء	٦٥
سعود يكرر الحج، ويتهيأ لغزو كربلاء	٦٧
المضايفي يلتجئ إلى الدرعية !	٦٨
سعود في مكة. . منتصرًا. . ومحذرًا السلطان العثماني !	٧٠
الدرعية يزدهر عمرانها.	٧٢
استشهاد الإمام عبد العزيز.	٧٤

الصفحة	الموضوع
٧٦	الدرعية قاعدة مملكة ! . . . .
٧٨	سعود يتولى الحكم في خضم أحداث مبيتة . . . .
٨٠	صلح مع شريف مكة على دخل !! . . . .
٨١	مملكة موحدة . . لأقطار الجزيرة ! . . . .
٨٣	الدعوة الإصلاحية تنتشر خارج الجزيرة . . . .
٨٥	الدولة العثمانية تتهيأ لحرب الدرعية . . . .
٨٦	الجيوش الغازية تصل الحجاز . . . .
٨٩	. . . ثم تزحف نحو الدرعية . . . .
٩١	الاستيلاء على المدينتين المقدستين . . . .
٩٤	وفاة الإمام سعود وولاية ابنه عبد الله . . . .
٩٦	صلح لم يتم بعد توغل الغزاة في البلاد . . . .
٩٨	محمد علي باشا يواصل إرسال الجيوش لغزو الدرعية . . . .
٩٩	الزحف على الدرعية ومحاصرتها . . . .
١٠٠	جيش إبراهيم باشا يحاصر الدرعية . . . .
١٠٢	معركة غبيراء ! . . . .
١٠٤	التفاف العدو حول الدرعية ! . . . .
١٠٥	استسلام دون انهزام ! . . . .
١٠٧	وانتصر العدو فسقطت الدرعية ! . . . .
١٠٨	في غمرة من الفوضى والاضطراب . . أمير معمري . . . .
١٠٩	مشاري بن سعود في الدرعية . . . .
١١١	تركي بن عبد الله يبدأ تحركاته . . . .
١١٢	العدو الخارجي يعيد الكرة . . . .
١١٤	ومرة أخرى . . تدمر الدرعية ! . . . .
١١٥	ويعود تركي لينشئ حكما قاعدته (الرياض) . . . .
١١٧	إطلال فجر جديد بقيام الملك عبد العزيز للعمل لتوحيد البلاد .
١٢٠	الرياض قاعدة للدولة . . . .

ما أحوجنا إلى أمثال هذا البحث...

يُعَـدُّ محمد الفهـد العيسى في طليعة شعـراء هذه البـلاد، ومعذرة عن عـدم إسباغ أحد الألقاب، فمنزلـة أبي عبد الوهـاب في نفوس أحبابه وعـارفي فضلـه ـ وما أكثرهم! ـ أسمى من إطـلاق لقب ابتذل من كثرة استعماله، وإطلاقه على من لا يستحقه، فأصبح لا مدلول لـه.

ومن المدرك بداهـة أن الباحث في أي جـانب من جوانب المعـرفة، والشـاعر يتساميان في التحليق في أجـواء الفكر والخيال، ليحاول البـاحث بذلك فهم ما استعصى عليه فهمه من قضايا العلم، ودقائق المعـرفة، وليسمو الشاعر صُعُدًا في أحاسيسه، ليغـرب فيه، فيعجب، ويطرب بما يتغنى به من أغاريـده العذبة المثيرة للشعور، المحركة للوجدان.

وأبو عبد الـوهاب ممن مَتَح في خِضَمٍّ ذلك البحر الزاخـر بالدِّلَاء الملاء، ومن ذا من هُـوَاةِ هذا الركـن الأصيل في ثقافتنـا، ودارسيه، ومتتبعي مسيرتـه في هذه البـلاد، يجهل ما أضـافه من إثـراء للمكتبة العـربية ممثـلا في دواوينـه الخمسـة (ليديا – الحرف يزهر شوقا – دروب الضياع – الإبحار في ليل الشجن – ندوب) ومما نشرته الصحف، وله غير ذلك، وكما قيل: (كَمْ في الزوايا من خبايا)!!

وليس غريبا في ميدان الثقـافة العربية الرحب التَّبْرِيزُ في جـوانب من جوانبها المتعـددة، ومن ذلك إجـادة الشعـر، والإسهـام بقـدر نـافع في مجال التحقيق العلمي، أدبًا وتاريخًا ولغة، ومن ذا الـذي يجهل ما لِلْمَعَرِّيِّ والأَبِيْوَرْدِيِّ وقبلهما ابن المعتز وغيرهم من آثار خالدة في المجالين.

ومن هنا فـلا بدع أن نـرى لأبي عبد الوهـاب بواكر ثمارٍ لـو تعهدهـا بالإنماء لآتَتْ أُكُلَهَا يـانِعًا طَيِّبًا، ولا أزال أذكـر أنني حين أَنْشَأتُ مجلة «العـرب» قبل ما

يقرب من ثلاثين عامًا، ما كان يمـدني به من أبحاث على طرافتها، وجدتها تُعَدُّ مستكملـة لما ينبغي أن تتصف بـه الـدراسات العلميـة الـرصينـة، تتعلق بنشأة الـدولة السعـودية. وهي مع ذلك بـأسلوب الشـاعر المتميـز، وحصافـة المؤرخ المدقق، مما كان له عند نشره في نفوس القـراء من الإعجاب والاستحسان ما كان يحملني دائما على الاستـزادة والحَثِّ على مـواصلـة الكتـابـة حتَّـى أصبح بحثًـا متكاملاً.

ولا أنسى مـا له من يـد مشكورة عنـد إنشـاء تلك المجلة من تأييـد وتسديـد ومؤازرة، عند إنشاء مكتبتها في (بنـاية الأمير محمد بن سعود) في (شارع فيصل) أبرز شوارع الرياض نشاطا وحركة.

ومضت سنون، وشغل أبو عبـد الوهاب بما شغل به من خـدمة أمته في مجال العمل في (السلك السياسي) متنقـلا في عدد من الأقطار ممثلا لبـلاده، وهو مع ذلك لا يَضِنُّ بأية بادرة خير تتعلق بـ «العرب» وصاحبها.

وكنت قبل بضع سنـوات قد استخلصت مـن المجلة مـا سبق نشره من ذلك البحث الممتع، المستكمل الجوانب، وبعثت به إليه وهـو سفير في أحد الأقطار العربيـة، وحبذت له نشر ذلك البحث، إذ هـو في الواقع يُعَدُّ أُولى الـدراسات عن تـاريخ تلك المدينـة التليـدة المجد، والتي لـم تنل من الـدارسين مـا هي جـديرة بـه من اهتمام لإبـراز مكـانتها، وتصـويـر ما مـر بها وبسكـانها من عبر التاريخ وحوادثـه.

ولئن كتب آخرون بعد كتابة أبي عبد الـوهاب عن هذه المدينة، وقد يكون من بينهم من استفـاد بأية طـريقة مـن ذلك البحث - ولن أزيد - فإن كل هـذا في رأيي مما يبرز أهميـة هذا البحث، والحاجة إلى نشره. وليس من شكٍّ في أن كـاتبه لو تهيأ لـه من الوقت والفراغ، مـا مكنه من إعادة النظـر فيه لوجد المجـال رحبا للتوسع، وزيـادة تفصيل بعض الحـوادث، أو تحوير بعض العبارات، إلا أنني

– وهـذا ما أبـديتـه لـه – رأيت الإبقـاء على مـا سبق نشره، وإن كان لا بـد من إضافة فلتكن حواشيَ ملحقةً بالأصل.

وها هـو أبو عبد الـوهاب يستجيب لرغبـة قد تكون بـالنسبة إليه بحـاجة إلى التريُّثِ والتفكير، لكي يعيـد النظر، ويضيف ويصحـح، ولكن أين له الـوقت الذي يمكنه من ذلك ؟!

ولعل من أبرز ما يتصف به هـذا البحث أن قارئه قد يحس أثناء الاسترسال في قـراءته أن الكـاتب الكريم عـرض القضايـا خـلاله عـرضًا أقـرب ما يكـون إلى البساطة، وعـدم التكلف، وتعمَّدَ أن يكون خاليًا من عبـارات التملق والمبالغة في الثناء، بل محاولاً – مـا استطاع – عدم الانسياق وراء العـاطفة، وإنَّما السير على النهج القويم في إبـراز ما يعرض مـن قضايا وحـوادث، لكي يجدَ قُرَّاؤهُ على اختلاف ميـولهم واتجاهاتهم ما يستهـويهم في الاسترسال والاستمتـاع والاستفادة منـه.

وما أُرَاني بحاجة للتـوسع في الحديث عن بحثٍ بين يدي القارئ، إلاَّ أنني لا أخفي أنني أُمتِعْتُ به عند نشره إمتاعًـا دفعني إلى الاستزادة منه حتى أصبح بهذه الصورة التي تقدم للقـارئ هذا اليوم، ولـه بَعْدَ أن يَتَبَيَّـنَ مـلامحها أن يُبدِيَ رأيه حيالها. أما أنا فقد تَمَنَّيْتُ ـ ومـا زالت هذه الأمنية في نفسي ـ أن يوفق الله المعنيين بالدراسات التـاريخية والجغرافية والاجتماعية لكي تنال كل مـدينة من مدن هذه البـلاد، بل كل قريـة ذات ميزة بـارزة في أحد جـوانب حياتها في مختلف أطـوار تاريخهـا من البحث والدراسـة ما يمكِّنُ من إبـراز تلك الجوانب التي تُمِدُّ نـاشِئةِ الأمـة بما ينبغي أن يعرفـوه عن بـلادهم، ممـا يزيـدهم بها اعتـزازاً وقوة، ويحفـز هممهم لمواصلة جهودهم النافعة للعمل في مختلف الجوانب الحيوية.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

حمد الجاسر

بين يدي القارئ الكريم...

هـذه أبحاث لم تُعَـدَّ لتقدم للقـراء كتابًـا متصلَ المباحث، مُنَسَّق الفصـول، وإنما كتبتْ لمجلـة تُعْنَى بنشر مختلف الموضـوعـات المتعلقـة بهذه البـلاد، من تاريخية وجغرافية وأدبية وغيرها، في فترات متبـاعدة، ومناسبات متفاوتة، وتولَّى قسم التحريـر في المجلة تحويرهـا، وترتيبهـا عند النشر بما يتلاءم مع متطلبـاته، ونُشِرَتْ قبل أكثر من ثلاثين عـامًا في خلال بضعة شهـور، من عام ١٣٨٦هـ، وكانت رغبـةُ صديقٍ عـزيز عليَّ - ورغبته أثيرةٌ في نفسي - الحافِـزَ الأول لتقديم تلك المبـاحث، وأنــا أدرك ضرورة تحوير الصـورة الأولى لها، لكي تـلائم ذوق القـارئ من حيث التبـويب والترتيب، إلاَّ أنني لـم أجد مُتَّسَعًـا من الـوقت، يمكنني من تحقيق مـا أردت، وكما قيل (ما لا يـدرك كله لا يترك كلـه) فبادرت لتحقيق تلك الـرغبة، وإن لم أتمكن مـن أن تكون كما أهـوى، وأرغب من جميع النواحي. ولن يَعْـدِمَ القارئ مع ذلك جُلَّ الفـائدة المبتغاة، وفوق هـذا فسيجد لديَّ أَرْحَبَ صـدرٍ لتقبل ما يوجهـه من نقد نزيـه، أو يبديه من تـوجيه حسن، مدفوعًا بالأمل بأن تتهيَّأ لي فرصة أكثـر ملاءمةً، لإعادة النظر فيما أتوقع أن يكون للآراء الموجهـة الأثر المشكور، في إعـادة نشر هذا الكتاب بصـورة أخرى أوضح ملامح، وأعمق استهواء لأذواق القراء الكرام.

والله الموفق.

المؤلف

الدّرعيّة : لمحة جغرافية

تقع مدينة «الدرعية» على ضفتـي وادي (العِرْضِ) الذي يخترق سلسلة جبال (العارض) في منطقة يطلق عليها الجغرافيـون المتقدمون (العروض) - ويحسن أن نلم إلمامة موجزة بتعريف مدلول هذه الأسماء الثلاثة العرض والعارض والعروض مبتدئين بأشملها دلالة .

العَرُوض :

متقدمو الجغرافيين يقسمون الجزيرة أقسامًا لا يعنينا من أمرهـا في بحثنا سوى قسمين :

القسم الأول : ـ ويطلقون عليه اسم نجد .

القسم الثاني : ـ ويطلقون عليه اسم الْعَرُوض .

فنجد يحدهـا غربًا سلسلة جبـال الحجاز وما يتصل بها من حـرار، وتمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتتميز هـذه الجبال من ناحيتها الغربيـة بالانحدار العظيم حتى تصل إلى سهل تهامة المُتاخِم للبحر. ومن نـاحيتها الشرقية يُلاحظ أنها تبدأ بالانخفاض تدريجيًّا حتى تنتهي هـذه السلسلة إلى أرض لا يميزها عما حولها من الأرض ارتفاع كبير فتلتحم بأرض نجد غرب حَضَن . ويروى عن المتقدمين (من رأى حضنا فقد أنجد)[1] .

ولا يفصل بين نجـد وبين ما يتـاخمه من بقية أقـاليم الجزيـرة فواصل طبيعيـة بارزة ، باستثناء الناحية الغربية منه التي تكوّن جبال الحجاز فاصلاً طبيعيًّا وتمتد

---

(١) وهم الريحاني فنسبه إلى الرسول ﷺ في كتابه «تاريخ نجد الحديث» .

منهـا في الجنوب بميل نحـو الشرق بسلسلـة جبال السراة والتي تُعَـدُّ من أعظم جبال بلاد العـرب، تمتد من قُعرة اليمن حتى بادية الشـام. وسمي حجازًا لأنه حجـز بين تهامـة ونجـد. . وسمي مـا بشرقيـه من الأرض إلى أطـراف العـراق والسَّمَاوَة نجدًا لارتفـاعه، ومـن سلسلة جبال السراةِ تنحـدر أودية على جـانب كبير من الأهميـة مثل وادي تُرَبـة ووادي رَنْيَـةَ ووادي بِيشَةَ، ومن الجنـوب وادي تثليث وروافده.

ويَحد نجدًا من الشمال كما ذكر المتقدمون باديةُ السماوة وهي الصحراء الواسعة الواقعة في شمال الجزيرة العربية بين العراق والشام.

وعندما نبحث عن تحديد نجدٍ عند المتقدمين فيما يفصل بينه وبين ما يسمونه (العَروض) الـواقع شرقه، فإننا لا نجـد حدودًا طبيعيـة بارزة، بل نجد اختـلافًا كبيراً في تحديد هذه المنطقة. وقد يتخذون من سلسلـة الرمال الممتدة من الجنوب إلى الشمال والتي تفصل بين العِـرْض، وعِـرْض شَمَام (القُـويعية ونـواحيهـا) ثم إقليم السِّر والقصيم - حَـدًّا بين اليمامـة وبين نجـد، إذ إن أكثـرهم لا يَعُـدُّون القصيم من العروض جغرافيا، وإن عدّوه من اليمامة إداريًّا.

وينبغي أن لا يعزب عن الذهن أن اليمامة وهي المنطقة الغربية من العروض، اتسع مدلولها في القـرن الأول الهجري فما بعده حتى شمل نجدًا بأسرهـا باستثناء القسم الـواقع مـا بين غـرب القصيـم إلى المدينـة، حيث أضيف إداريًّـا إلى والي المدينة وذلك لاختراق طريق الحج لهذا القسم.

إننا عنـد استقراء أخبـار القرن الأول الهجـري فما بعده من أخبـار ولاة اليمامة نجد أن اليمامة تشمل الإقليمين - نجدًا واليمامة - واليمامة كما هو معروف الجزء الغربي مما يطلقـون عليه اسم (العروض) وقديماً يطلق اسـم العروض على اليمامة والبحـرين (الأحساء أو مـا يعـرف بالمنطقـة الشرقيـة اليوم) ويـدخل في مسمى

البحـرين قديماً كلّ مـا بين عُمان وحدود البصرة، وسُمِّيَ عَـرُوضًا لاعتراض هـذا الإقليم في وسط بلاد العرب وامتداده عرضًا من الشمال إلى الجنوب.

وأبرز ظاهرة طبيعية في القسم الغربي من العروض هذا الجبل الممتد من ناحية (الـزُّلفِي) جنـوب (القصيم) حتى يلتحم في رمـال الأحقـاف (الـربع الخالي) ويسمى هذا الجبل بالعارض، و(عارض اليمامة).

العـارض:

أما العارض: فهو الجبل المُمْتَد عَـرْضًا في وسط الجزيرة، ويُعرف بهذا الاسم في العهد الحاضر، وبـاسم جبل (طُـوَيْق) لتطويقـه جزءًا كبيرًا من بـلاد المنطقة الوسطى في الجزيرة.

وممن وصفـه من الجغرافيين المتقدمين فـأحسن الوصف أبـو زياد: يزيـد بن عبـد الله الكِلابي العـامـري، الأعرابي من بـاديـة نجـد، ومن أهل القرن الثـاني والثـالث الهجريين، صـاحب كتاب «النـوادر». قـال - فيما نقله عنـه ياقـوت الحموي: العارضُ: بـاليمامة، أما ما يلي المغـرب منه فعِقاب، وثنايـا غليظة، وما يلي المشرق، وظـاهرهُ فيه أوديـة تذهب نحو مطلع الشمس كلهـا، العارضُ هو الجبل. قال ولا نعلم جبلاً يسمى عـارِضًا غيره، وطرفُ العارض في بلاد بني تميم، في مـوضع يسمى القُـرْنَتَين، فثمَّ انقطع طـرف العـارض، الـذي من قبل مَهَبِّ الشمال، ثم يعـود العـارضُ حتى ينقطع في رمْل الجَزْءِ، الفُـرُط. هذا مـا أورده الحموي عن أبي زياد.

ولهذا الجبـل - أو السلسلـة من الجبـال - ثنايا يسلكها من يـريد اجتيـازه، لا يستطاع سلوكه من غيرها. ومن أشهرها:

- ثَنِيَّة الأَحيسَى[1]، ومنها دخل الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد بلادَ بني حنيفة .

- نَقْبُ بَوْضَة .

- نقبُ ضاحِك .

- سَقْطَةُ آل أُبَيّ .

- ثنية حَجْر.

- ثَنِيَّة مُسْعَط .

وجبل العارض ذُو أهمية كبيرة في المنطقة للميزات التالية :

١ - يعد حصنًا طبيعيًّا في العهود السابقة لسكانه، عندما كان الإنسان يعيش معتمدًا على سيفه ورمحه، فتحصينه الطبيعي من منخفضات الأودية التي تشمخ فوقها قلل الجبال شموخًا يكفي لمن تحصن فيه مؤونة أعدائه ويحميه منهم. من الناحية الغربية يشاهد هذا الجبل بمنتهى الشموخ وتتراءى للعين أطراف جباله وكأنها الحصون المبنية، منيعة شامخة سامقة الذُّرى. ولقد وصفها الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة إذ قال :

وَأَعرَضَتِ اليَمَامَةُ واشْمَخَرَّتْ كَأَسْيافٍ بأَيْدِي مُصلِتِينَا

أما من الناحية الشرقية فإن ارتفاعها يبدأُ بالانخفاض شيئًا فشيئًا حتى يصبح مُسَامِتًا للأرض التي تقع شرقيهُ بحيث لا تشاهد أية ظاهرة طبيعية تبعث على الاعتقاد بالانحدار من سلسلة جبلية. هذه السلسلة عرفت قديماً باسم (عارض اليمامة) وحديثًا باسم العارض أو جبل طُويق. تكوّن هذه السلسلة حواجز

---

(١) تعرف الآن باسم (الحيسيَّة).

طبيعية حصينة يجد السكان فيها ما يغنيهم عن تشييد الحصون والقِلاع، مما يجعل كثيرًا من أعدائهم يرجعون دون الوصول إليهم.

ولعل هذا من الأسباب التي جعلت لبني حنيفة - وكانوا يسكنون وسط اليمامة - من ذيوع الذكر في الشجاعة ما هو معروف. وفي القرآن الكريم من وصفهم في بعض التفاسير: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قوم أُولِي بأسٍ شديد.. ﴾ الآية، وهذا شاعرهم يفتخر بأنهم حلّوا في مكان تحوطهم القبائل من كل جانب، ومع ذلك فقد حافظوا على أرضهم بشجاعتهم وقوتهم.. هذا الشاعر أزيرق اليمامة موسى بن جابر الحنفي يقول:

وَجَدْنَا أَبَانَا كَانَ حَلَّ بِبَلْدَةٍ ... سُوًى بَيْنَ قَيْسٍ، قَيْسِ عَيْلاَنَ، والفِزْرِ

فَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا العَشِيرَةُ كلُّها ... أَقَمْنَا وحَالَفْنا السُّيُوفَ على الدَّهْرِ

فَما أَسْلَمَتْنَا بَعْدُ فِي يَوْمِ وَقْفَةٍ ... ولاَ نَحْنُ أَغْمَدْنَا السُّيوفَ على وِتْر

بل نجد بعض الخلفاء في العهد الإسلامي يتمنَّى أن يكون قد التجأ إلى هذا الجبل. فهذا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول بعد أن وجد ما وجَدَ في العراق من تَوَاكُلِ قومه وتقاعُسِهم عن نصرته:

وَلَوْ أَنِّي أُطِعْتُ عَصَبْتُ قومي ... إِلَى رُكْنِ اليمامة أو (شَمام)

ولكنّي إذا أبْرَمْتُ أَمْرًا ... مُنِيتُ بخُلْفِ آرَاءِ الطّغام

ولم تهزم هذه القبائل التي كانت تعيش في أَودية هذا الجبل المنيع في داخل بلادها إلا بعد أن رمتها العرب كلها بالعداوة عن قوس واحدة، وتألبت عليها حينما جاء الإسلام فانضوت القبائل العربية تحت لوائه، وسارت لمحاربة بني حنيفة في السنة الحادية عشرة من الهجرة بقيادة خالد بن الوليد. وفي هذا المعنى يقول الفرزدق:

لَعَمْرِي لَقَدْ سَلَّتْ حَنِيْفَةُ سلَّةً سُيُوفًا أَبَتْ يَوْمَ الوغَى أَنْ تُعَيَّرَا
سُيُوفًا بِهَا كَانَتْ حَنِيْفَةُ تَبْتَنِي مَكَارِمَ أَيَّامٍ تُشِيبُ الحزوّرا
بِهِنَّ لَقُوا بِالعِرْضِ أَصْحَابَ خالدٍ وَلَوْ كانَ غَيْرَ الحَقِّ لاَقَوْا لأُنْكِرَا

٢ - تخترقه أودية كثيرة تمتد من الغرب إلى الشرق وهي على درجة قوية من الخصوبة، ووفرة المياه في العهود القديمة، مما دفع بكثير من القبائل إلى الاستيطان والتحضر، والانتقال من البداوة إلى الحاضرة. فبنو حنيفة وغيرهم من القبائل التي انتشرت في أودية العارض كانوا يعيشون في ماضيهم كغيرهم من البادية في حل وترحال استوطنوا العرض، ومن أشهر أودية العارض من الشمال إلى الجنوب :

١ - وادي الكَلْب - الذي تقع على ضفته مدينة المجمعة وحَرْمَةَ، وما بقربها من القرى.

٢ - وادي الفَقْي المعروف اليوم باسم وادِي سُدَيْر، والذي يكتظ بالقرى، ومن أشهرها الرَّوْضةُ والحَوطَة والجَنُوبِيَّة والعَطَّار والتُّوَيْمُ وجُلاجل وعُشَيْرَة وغيرها.

٣ - وادي قُرّان - ويعرف في عهدنا الحاضر باسم الشَّعِيب، ومن أشهر مدنه قديماً (قُرَّان)، وتعرف اليوم باسم القَرِينَةِ، ومَلْهَم.

ولِقُرَّان وملهم شهرة كبيرة في العهد القديم خلدها الشعر : هذا جرير يقول :

كَأَنَّ حُمُولَ الحَيِّ زُلْنَ بيانع مِنَ الوارِدِ البَطْحاءِ من نَخْلِ مَلْهَما

ويقول عَلقمةُ بنُ عَبدة :

سُلاَّءَةٌ كَعَصا النَّهْدِيِّ غُلَّ بها ذُو فَيْئَةٍ من نَوى قُرَّان مَعْجُومِ

ويقول المُرَقَّش :

بَلْ هَـلْ شَجَتْكَ الظَّعْنُ بـاكِـرَةً كـأَنَّهُنَّ النَّخْـلُ مـن مَلْهَـمِ

ولطِرَفَة في ذلك :

وأَنَّ نِسَـاءَ الحَيِّ يَـرْكُضْن حَوْلَـهُ يَقُلْـنَ عَسِيْـبٌ مِـنْ سَرَارةِ مَلْهَمَا

ولجرير أيضًا :

كَـأَنَّ أَحْـدَاجَهُمْ تُحْدى مُقَفِّيَـةً نَخْلٌ بِمَلْهَـم أَوْ نَخْل بِقُـرّانَـا

وفي أعلى هذا الوادي تقع (حُرَيْمِـلاءُ) قاعدة هذا الوادي في العصر الحاضر، وتعرف قديماً باسم (حَرْمَلاء).

٤ - وادي سَـدُوس الذي تقـع فيه قـريـة بني سدوس، وتعـرف الآن بـاسم سدوس، وبقـربها قريـة حُزْوَى، وهي حُـزْوَى بني سعد، وليست حُـزْوَى التي ذكرها ذُو الرُّمة فهذه نَقًا من أنقية الدهناء، وقرية صلبوخ.

٥ - وادي نساح ويأتي من غـرب السلسلة الجبلية (العـارض) بحيث يخترقها من مكان يعرف عند المتقدمين باسم (فُوَّهة نساح) وهي كالفجِّ في قلب الجبل.

٦ - واديا بِـرْكٍ ونَعَام، وفي هذين الـواديين تقع بلاد الحَرِيق والمُفَيجـر - قال الشاعر :

أَلا حَبَّـذَا، من حُبِّ عَفْـراءَ، مُلْتَقَى نَعَـامٍ وبِـرْكٍ حيث يلتقيـان

فوادي برك ووادي نعام يلتقيان في موضع يقـال له قديماً أَجْلَة واشتهر بملتقى الواديين :

وشاعر آخر يقول :

فما يخفى عليَّ طريقُ بِرْكٍ وإنْ صَعَّدْتُ في وَادِي نَعَامِ

٧ - وادي الحوطة (حوطة بني تميم) . . وقديماً يعرف باسم (وادي المجازة) [١]، ولا يزال هذا الاسم يطلق على مزارع في مفيضِ الوادي أَسْفل بلدة الحوطة .

٨ - ومن الأودية الشهيرة الواقعة جنوبه أودية بلاد الأفلاج - الهدَّار وكُرز والأحَمَرُ وغيرها من الأودية التي تنتشر على ضفافها وبقربها قرى الأفلاج ومزارع تلك الواحة التي عرفت باسم (الأفلاج) وسميت الأفلاج لكثرة فُلْجانها ، أي أنهارها . ولا تزال آثار تلك الأنهار باقية حتى الآن .

٩ - وادي حنيفة - وتقع الدرعية على ضفتيه - وسنتحدث عنه في الفصول القادمة .

---

(١) انظر عن (المجازة) كتاب «إبراهيم بن عربي موطد الحكم الأموي في نجد» ففيه بحث ضاف عنها .

حول (وادي سدير)

علّق أحد قراء «العرب» وهو الأخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحيمد (بوحيمد) على هذه الحلقة من البحث - بعد نشرها - تعليقا يدل على أدبه، وتَتَبُّعِهِ لِمَا يُنْشَرُ عن بلادنا بها هذا ملخصه :

قال : اطلعت في الحلقة الأولى من مقال (مدينة الدرعية) وقرأت فيه : أن وادي الفقي المعروف باسم وادي سدير، والذي يكتظ بالقرى، ومن أشهرها الروضة والحوطة والجنوبية والعطّار وعُشَيْرة والتُوَيْم وغيرها .

والذي نعرفه نحن أبناء المنطقة أن وادي سدير المعروف قديماً باسم الفَقي يبدأ من بلدة المَعْشَبَة ثم الروضة والداخلة فالحصون والجنوبية ومقبلة والعطّار والجُنَيْفي والشارخية والعودة .

والعودة هي آخر بلدة في وادي سدير، ويذكر أنها أقدم بلدة فيه، ويوجد فيها آثار تسمى مدينة غيلان، ولعله غيلان ذو الرمَّة، هذه الآثار مبانٍ كثيرة متهدمة على ربوة عالية، وبالقرب منها بئر، ويوجد أماكن يطلق عليها جَمَّاز ومسافر، وفي القصص المتداول بين العامة أنهما أخوان لغيلان. ويوجد في العودة صخرة فوقها كتابات قديمة. أما جلاجل والتويم وعشيرة فتقع في واد آخر يسمى (أبا المياه)(١).

وقد ذكر هذا الوادي الشاعر الشعبي إبراهيم بن جُعَيْثِن، فقال من قصيدة :

---

(١) سماه ياقوت في «معجم البلدان» : (وادي المياه) وقال : إنه أول ما يسقي (جُلاجِلاً).

يُضفي على (المِشْقَـــر) إذَا هَـــوَّدَ الليل	يعمّ شِعْبَـــانـــه، يجي بـــاحتمالـــه
ويـاطـا (الرُّويضـة) و(الحُرَيِّق) مقـابيل	وأبـا (السروج) ومـا انحـــدر من قبالـه
و(وراط) يَحيـا بـه حـــلالٍ مهـــازيل	حيثـه هـــو اللي ينطح السيل جـالـــه
وإذا انحدر يضفي على (العودة) السيل	و(تمير) و(مُجَزَّل) تُملاّ هجـــالـــــه
ويثني شعيب (الغـاطْ) سيلـه بتسهيل	مـا يتعب اللي غـارسٍ لـه سبـالـه
ويمطـر على (حَـرْمَهْ) حقـوق المخـابيل	يشبع بـــه الحِرْفِيْ وراعـي العمالـــه
ويعل وادي (المجمعـــة) للمطـــافيل	(وأبـا الميـــاه) عـــلاوتـه والمفـــالـه
ووادي (الفقي) زَيْنَ البســـاتين ونخيل	في القيظ يسقـي صـــافي مـن زلالـــه
يـرجع (ســديـر) ويكثـرنَّ المحـاصيل	تلقى بـــه التـاجـــر يُنَمِّي حلالـــه

هـذه خلاصـة مـا كتب بـه الأديب أبو أُحيمـد إلينـا، وإننـا لنشكره أجـزل الشكر، ونعده هو وكلّ من له أية مـلاحظة أن ننظر إلى ملاحظته بعين الاعتبار، ونضيفها إلى بحثنا هذا بعد أن نصدره في كتاب. أما تعليقنا على ما تقدم فهو :

١ – أننا لـم نقصد التفصيل، عن سديـر وأوديته، إذا البحث خاص بمدينة الدرعية، ولكننا ذكرنـا المهم من أودية جبل العارض لنصل إلى مقصودنـا.

٢ – أردنا بقـولنا : وادي سدير المعنى الشـامل لبلدان ذلك الإقليم، بصرف النظر عن كون بعض القرى لا يشملها اسم الفقي. وكثيرًا ما يطلق اسم الوادي على مجموعـة من الأودية المتقـاربة، كما يقال (وادي القـرى) في الحجاز و(وادي المياه) بمنطقة الأحساء، والاسمان يشملان أودية كثيرة متفرقة.

٣ – أما ما ذكـره الأخ الكريـم عن العودة، فإننا زيادة في الإيضـاح نورد كلام الهمـداني في (صفـة جـزيرة العـرب) وفيـه شيء من الإيضـاح لما قـال الكـاتب الكريم.

قال الهمداني : «ثم تقفزُ من العتك في بطن ذي أراط ، ثم تسند في عارض الفقي .

فأول قراه جمّاز وهي رِبَابيّة ملْكانِيَّة عَدَوِيَّة ، من رهط ذي الرُّمَّة ، ثم تمضي بطن الفقي ، وهو واد كثير النخل والآبار، فتلتقي قارة بَلْعنْبر وهي مَجْهَلة ، والقارة أكمة جبل منقطع في رأسه بئر على مئة بَوْع ، وحواليها الضِّياع والنخيل . قال راجزهم :

إنَّا بَنَيْنَا قَارَةً وسْط الفَقِي   من الدَّبابيب ومن سَحِّ المطي
ومن أميرٍ جائرٍ لا يَرْعوي   لا يتقي الله ولا يرْثي ، شقي

ثم تصعد في بطن الفقي ، فترد الحائط ، حائط بني غُبَر، قرية عظيمة فيها سوق ، وكذلك جَمَّاز سوق في قرية عظيمة أيضًا ، ثم تخرج منها إلى الرّوضة روضة الحازمي ، وبها النخيل وحصن منيع ، ثم تمضي إلى قارة الحازميّ ، وهي دون قارة العنبر، وأنت في النخيل والزروع والآبار، طول ذلك، ثم تَوم، ثم أُشَيْ ، ثم الخِيْس ثم تقطع الفقي ، وتيامن كأنك تريد البصرة فترد مُنِيخَيْن» .

ومما تقدم يتضح أن تلك البلاد لقبيلة ذي الرُّمة الشاعر الذين هم بنو ملكان ابن عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر أبناء عم تميم ، وهم من الرّباب ويدخلهم بعض النسابين في تميم للقرابة .

ولهذا فليس بغريب أن نجد في القصص الشعبي شيئًا من الأخبار التي تنسب بعض هذه القرى إلى غيلان الشاعر مع أنه بدوي وليس حضريًّا ، ولكن صلته بأبناء عمه الحضر المستوطنين في هذه الأماكن لا بد أن يكون لها أثر، أما هو فقد عاش بدويًّا متنقلا في الدهناء والصَّمَّان وما حولها ، ومات في الدهنا ، وقبر في أعلى نَقًا فيها يدعى (فرِنْدَاد) .

وقرية جمَّاز قـديمة كما يفهم من كلام الهمداني المتقـدم . وتجد أن الهمداني عد قرية تـوم التي هي التويم، عدها في وادي الفقي من قبيـل إطلاق الاسم العام على ما يجاوره كما فعلنـا .

وللأخ المعلق الكريم الشكر مكررًا .

العِرْض: أوديتـه، قـراه [1]

من أعظم أودية جـزيرة العرب (وادي حنيفة)، ويسمى عـرض بني حنيفة، يعرف اليـوم باسم (الباطن) وتتكون فـروع مَجَارِيْهِ من أعالي جبل (المخَـامر) أو جبال (الخُمْرة)، ثم ينحدر شرقا، وكان قديما يخترق شرق الجزيرة حتى يصب في البحر، إلا أن رمال (الدهناء) الـزاحفة حالت دونه ودون ذلك، فأصبح يفيض في روضة (السَّهبا) في أسفل منطقة (الخـرج).

ويعد هـذا الوادي من أخصب أودية بـلاد العرب في القـديم؛ فهذا الأعشى الكبير، أعشى قيس يقول:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ (العِـرْضَ) أصبح بَطْنُـهُ   نخيـلاً وزرعًـا نـابتـا، وفُصـافِصـا

وهو من أشيع الأودية ذكرا، وأكثرها سكانا وعمرانا في الماضي، وتنتشر القرى والمزارع والأودية المأهولة بالسكان على ضفافـه.

وقد أشرنا - فيما تقدم - إلى أن جبل العارض يخترقه فجاج واسعة، منها ينفذ إلى الأوديـة التي في جـوفه، ومن أشهـر تلك الفجـاج (الأحَيْسَى) بفتح الهمـزة والحاء وسكون اليـاء، والسين المفتوحة بعـدها ألف مقصورة تـرسم بصورة (ى) وفي أعلى هـــذا الفج عقبـــة، وتلك تسمى (ثَنِيَّـــة الأَحَيْسَى) ومنهـــا ينفـــذ إلى (العِرْض) - وادي حنيفة - ومنها دخل الجيش الإسلامي بقيـادة خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في السنـة الحادية عشرة من الهجـرة، لغزو ذلك الـوادي، وقد

---

(1) العِـرْض لغةً يسمى بـه كل وادٍ فيه قـرى ومياه، كما قـال الأزهري في كتـاب «تهذيب اللغة» وعِـرْضُ اليمامة واديها، وتجد في «معجم البلدان» أقوالاً كثيرة في تعريفه.

يطلق اسم (الأَحَيْسَى) على أعلى الوادي – في هذه العهد، وفي العهد الماضي، كما يدل على ذلك قول الشاعر القديم :

وبالجِزعِ، من وادي (الأَحَيْسَى) عصابةٌ سُحَيْمِيَّةُ الأنسابِ، شَتَّى المواسِمِ

– سُحَيْميّة : من بني سُحَيْم، من حنيفَة.

ويسمَّى الآن أعلى الوادي (الحَيْسيَّة) من قبيل تَسهيل الهمزة.

ومن أشهر الأمكنة المعروفة فيه قديماً :

١ – في أعلاه يقع وادي (أباض) الذي يضرب المثل بطول نخله، فقد نقل ياقوت الحموي في «معجم البلدان» أنه لم يُرَ نَخْلٌ أطولَ من نخل (أباض) وينقل صاحب اللسان عن أبي حنيفة الدِّينوري : أنه كثير النخل والزروع.

وفي أباض كانت وقعة خالد بن الوليد رضي الله عنه، مع مسيلمة الكذاب في السنة الحادية عشرة للهجرة، ومن قول جرير :

زَالَ الجمالُ بِنَخْلِ (يثْرِبَ) في الضُّحى أو بالـرَّواجِعِ من (أُباض) العَامِر

ويقول رجل من بني حنيفة في يوم أباض [١] :

فَلِلّه عَيْنا مَنْ رأى مِثْلَ مَعْشَرٍ أحاطتْ بهمْ آجالُهُمْ، والبوائقُ

فلمْ أرَ مِثْلَ الجَيْشِ، جَيْشِ مُحَمّدٍ ولا مثْلنا يَومَ احتوتنا الحدائِقُ

أكَرَّ وأحْمَى منْ فريقينِ جُمِّعُوا وضَاقَتْ عَليهم في (أُباض) البوارِقُ

(١) لبلدة (أباض) شهرة في القرن الأول الهجري، فقد كانت خلال سنوات عدة ليست قاعدة البلاد وحدها، بل قاعدة حكم شمل قلب الجزيرة ما عدا مكة والمدينة، وامتدَّ إلى اليمن وحضرموت والبحرين – من عُمان إلى البصرة في عشر السبعين من القرن الأول الهجري – انظر لتفصيل هذا كتاب «ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد». تأليف حمد الجاسر.

٢ – وفي أعلى الـوادي – أيضًـا – يقع وادي الهَدَّار – ويعـرف اليـوم بـاسم (الهُدَيْدِيـر) بالتصغير وبه وُلِـد مسيلمة بن حبيب الكـذاب الحنفي، وفيه نشأ. وكان له عليـه طَوِيٌّ (أي بئر) ثم انتقل إلى أهل (حَجْر) وأنزلوه عنـدهـم في مدينة (حجْر). ومن قول موسى بن جابر الحنفي:

غَـداةَ عَـلا عِـرضَنـا خَـالـدٌ وسـالتْ (أُبـاضُ) و (هـدَّارُهـا)

٣ – وفي وسط العـرض تقع (العُيَين) – وتعرف الآن بـاسم (العُيَينة)، وفيهـا ولد شيخ الإسلام المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

٤ – (عَقْـربَـاءُ) وكـان للمسلمين وقائع عنـدهـا مع مسيلمـة، وفي إحـدى حدائقهـا قُتل، ومعركتهـا هي المعركـة الفاصلة في تلك الـوقعات، وفيهـا يقول ضِرار بن الأزور:

وَلَـوْ سُئِلتْ عَنَّـا (جَنـوبُ) لأُخْبِرَتْ عَشِيَّـةَ سَـالتْ (عَقْـربَـاءُ) و(مَلْهمُ)

٥ – (العُقَيْرُ): وبها استقر إبـراهيم بن عـربي، والي اليمامة لبني مـروان وفيها توفي. وقد درست[1].

٦ – (العَمَّارِيَّـةُ): وتقع غرب الـوادي في وادٍ يفيض في (العِرْض)، ولا تـزال معروفـة مأهولة.

٧ – مُهَشَّمَة: وهي مقرونة بالعمَّارية قال الشاعر:

يَـا رُبَّ بَيْضـاء عَلى مُهَشَّمَـة أَعْجَبَهَـا أَكْلُ البَعِير اليِنمَـهْ

وقد درست هذه البلدة أيضًا:

٨ – (أَبـو الكِباش): بلـدة مجاورة للعمَّارِية ولا يبعـد أن تكـون هي المعروفـة قديمًا باسم (مهشمة).

---

(١) انظر عن تحديد موقعها كتاب «إبراهيم بن عربي موطد الحكم الأموي في نجد».

٩ - (العَوْدَةُ) : وتعرف بعودة الدّرعية، وهي بلـدة الدرعية القديمة، وغالبًا ما يطلقُ أهل نجد هذا الاسم على البلدة القـديمة، مثل (عَودة سدَيْر) و(العَوْد) إحدى محلات الرياض القديمة.

١٠ - (العُلْبُ) : قرية تقع مجاورة للدرعية فوقها.

١١ - (عِرْقَةُ) : من أقدم قرى الوادي، ولا تزال باقية، كثيرة النخل.

١٢ - وادي (لَبَن) وهو مشهور بعـذوبة المياه حتى يومنـا هذا، وفيه كثير من الحدائق، ومنه كان يستعذب الماء لمدينة الرياض منذ عهد قريب.

١٣ - وادي (نُمَار) : وفيه يقول أعشى قيس :

قـالـوا نُمارٌ فبَطْنُ الخَالِ، جَـادَهُما   فَـالعَسْجَـدِيَّـةُ فـالأبـلاءُ فـالـرِّجلُ

وفيه يقول الشاعر القديم :

ومَـا مَلِـكٌ بأغـزَرَ مِنك سَيْبًـا   ولاَ وَادٍ بِـأنـزَهَ مـن (نُمارِ)
حَللْتَ بِـه فـأشرق جـانِبـاه   وعَـادَ الليـلُ فيـهِ كالنَّهـار

١٤ - النُّمَيلـةُ : وهي في مفيض وادي نمار حين يجتمع بـالعـرض (وادي حنيفة) وتُعرفُ اليوم باسم (النُّميليّات).

١٥ - (مَنْفُوحـة) من أشهر قـرى الوادي : وأصل تسميتهـا أن بني قيس بن ثعلبة أتوا عُبيدا رئيس بني حنيفة. وقالوا له : انفَح لنا مما أصبت ـ أي هب لنا ـ فوهبهم قرية أطلق عليها اسم منفوحـة.

وهي بلـد الأعشى : ميمـون بن قيس، وبها مـات ودفن، ويوجـد بها اليـوم أطلال قصر، فوق أكمة مرتفعة من الطين، يقال إنه دار الأعشى. ومن قوله :

شـــاقتك مــن (قَتْلَـــة) أَطْـــلالُها بـــالشَّطِّ فـــالــوتْـــرِ إلى حـــاجِـــر
فَـــرُكْنُ مِهـــراس إلى مَـــــارِدٍ فَقَـــاع (منفـــوحـــة) فـــالحائِرِ

وتبعـد عن مدينـة الريـاض بميلين، وإن كانت أطـراف الريـاض اليوم قـد التحمت بها.

١٦ – (الخِضرمـة) : وهي التي أقطعها الخليفـة أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – مُجَّاعة بن مُرارة من سادات بني حنيفـة في خلافتـه. وقد درست، ويوجد فيما بين ملتقى وادي (الـوِتْر) – البطحاء – بـوادي (العِرْض) أرضٌ يطلـق عليها هذا الاسم، لا يبعد أن تكون هي موقـع (الخضرمة) القديمة. وهي غير خضرمة الخرج في جَوِّ الخضارم.

١٧ – (وَبُرة) من القرى التي درست، ولم يبق سوى اسم واديها (وُبَيْـر).

١٨ – غَبْراءُ : بلـدة كانت معـروفة قـديماً، ولـم يبق اليـوم منها سـوى اسم واديها (غُبيراء) – بالتصغير، بقرب مدينة (الدِّرْعيَّة).

١٩ – فيشـان : من قرى الـوادي الـدارسـة، يقول القحيف العقيلي يهجـو حنيفة :

أَتَنْسَـوْن يـا خِـــزَّانَ (طِخْفـةَ) نِسْـوَةً تُـركن سَبـايَا بَيْنَ (فيشـانَ) فـالنَّقْبِ

٢٠ – المَلْقَى : قـرية ذات نَخْل كثير في ملتقى الـوادي بأودية أخـرى. ولهذا سمي بهذا الاسم، وهو من القرى الحديثة.

٢١ – الجُبَيلـة : كـانت في القديم محلـة من محلات (عَقْـرَبـاء) فأصبح اسم (عقْربـاء) يطلق على روضة بقربها، وعلــق اسم الجبيلة فشمل مـا كـان يسمى بـ(عقْربـاء).

وأخيرًا قريتا : المليبيد وغصيبة وهما القريتان الواقعتان في أعلى الدرعية .

وسنأتي على تفصيل الحديث عنهما عند الكلام عن (الدرعية) .

وهناك مزارع وقـرى كثيرة على ضفاف الوادي قديماً وحديثًـا ، مما لم نرد حصره في كلمتنا هذه .

سكان العرض قديماً

يكـاد يتفق المؤرخـون المتقدمـون على أن العـرب قسمين - بـائدة، وباقيـة، فالبائدة عـاد وثمود وطَسم وجديس والعمالقة . وذكر الطبري أن العـرب العاربة البائدة عشرة أحياء هي : عاد، وثمود، والعمليق، وطسم، وجديس، وأميم، والمود، وجرهم، ويقطن، والسلف .

وقـرن العلماء بثمود، طسم وجـديس، والعمالقة، وقـالوا : إنهم أبنـاء عم، ويرجعـون هذه القبائل إلى سـام بن نوح . فطسم وعمليق أبنـاء لاوذ بن سام بن نوح . وجديس بن إرم بن سام . وثمود بن جاثر بن إرم .

كما أن بعض المؤرخين يـرى أن قبائل طسم وجـديس وعمليق كلها من أبنـاء لاوذ بن سام بن نوح، وثمـود أكثر شهرة لورود ذكرها في القـرآن الكريم، ولبقاء بعض آثارها، إلاَّ أنَّ عصرها لا يزال مجهولا، وكذا الكثير من أخبارها إلا ما جاء في كلام العرب واليونان وهو ما لا يعطي فكرة واضحة .

وكـانت طسم وجديس تسكنـان نجـدًا على ضفاف وادي العـرض والوتـر، ولطسم فيهما السيادة والملك . إلى أن انتهى الأمـر إلى عمليق وهو رجل من طسم ظلوم غشوم، سَنَّ فيما سَنَّ إبَّـان حكمه - ألا تُزَفَّ بِكرٌ لـزوجها حتى يدخل بها أولا، وطال الأمر على جديس، وأنفت من العار والذل الذي ألحقه بهم عمليق .

وثار رجل مـن جديس هو الأسـود بن غفار، وكـان سيدًا مطـاعًا في قـومه، وطلب من رؤسـاء جديس بأن يجعلـوا حدًّا لاستهتار عمليق وظلمه . وذلك على أثر زواج أخته عُفيرة، التي دفعت إلى عمليق ليلة عرسها فافترعها وخرجت منه إلى قومها شاقة درعها وهي ترتجز :

لاَ أَحَــــدٌ أَذَلّ مِنْ جَــــدِيس أَهَكَــذَا يُفْعَل بــالعـــروس ؟!
يَـــرْضَى بِهَذا يَــا لَقَــوْمِي حُــرٌّ أُهْـدَى، وقـد أَعْطـى وسيقَ المَهْـرُ ؟
لأَخْــذُه الموتَ كــذا لِنَفْسِــهِ خَيْرٌ مِنَ أن يُفْعَـل ذَا بِعِـــرْسِــهِ

وأخذت تحرض قومها على عمليق وطسم . . . ومن قولها :

أَيَجْملُ مَــا يُــؤتـى إلى فَتَيَــاتِكُمْ وأنتُمْ رِجــالٌ فِيكُمْ عــدَدُ النَّمْلِ ؟!
وَتُصْبِحُ تَمْشِي في الــدِّمــاءِ عفيرة عَشِيَّــةَ زُفَّتْ في النِّســاءِ إلى بَعْلِ ؟
وَلــوْ أنَنَّــا كُنَّــا رِجــالاً وكُنْتُمُ نِســاءً، لَكُنَّــا لا نُقِــرُّ بــذا الفِعْلِ
فمُـوتُـوا كِـرامًــا أَوْ أَمِيتـوا عَـدُوَّكَمْ وَهُبُّـوا لِنَــارِ الحَرْبِ بـالحَطَبِ الجَزْلِ

ومنهــا :

فَبُعْـدًا وَسُحْقًــا لِلَّـذيْ لَيْـسَ دَافِعًـا وَيَخْتـالُ يَمشي بَيْنَنا مِشيـةَ الفَحْلِ !!

ولا شك أن هذا من الشعـر المنحول؛ إذ لم يصل إلينا من لغة العـرب البائدة شيء يعتمد عليـه . غير أنه يمثل جانبًا من القصص الشعبي المتـوارث . ومعلوم أن القصص الشعبي يعبّر ـ بوضــوح ـ عن جوانب عظيمـة من حياة الأمم، لا يمكن فهمها بدونه، وهو في الوقت نفسه كثيرا ما يرتكز على أساس من الواقع .

وقصة القضــاء على عمليق وطسم ـ كما هي مشهـورة ـ هي أن قبيلـة جديس أقامت لعمليق وقبيلته طسم طعامًا . ودفنت جـديس حوله السيوف في الرمال . فلما التأم عقـد عمليق وقبيلته حـول الطعام، قامت جـديس واستلت سيـوفها وقضت على طسم، وقتل الأســودُ بن غفـار عمليق الملك الطسمـي، وفـر من القتل أحـد أبنــاء طسم ويـدعى ربـاح بن مـرة إلى حســان تبع ملك اليمن، ليستنهضه ويحثه على إغاثته والأخذ بثأره .

وقام حسان بغزو جديس في نجد، ولما أصبح على مشارفها قال له رباح بن مرة: إن لي أختًا متزوجة من جديس، ليس على وجه الأرض أبْصَر منها، اسمها (اليمامة)، فمر أصحابك ليستتروا بالشجر ففعل. ولكن اليمامة أبصرتهم، وقالت لقومها: لقد سارت إليكم حِمْير، فإني أرى رجلاً في شجرة، معه كتف يتعرقها، أو نعل يخصفها، فلم يصدقوها، فصبحهم حسان فأبادهم، وخرب بلادهم، وهدم قصورهم وحصونهم، وكانت لهذه الحصون شهرة كبيرة ورد عنها في الأخبار ما يشبه الخيال.

ومما أثر من الشعر العربي القديم في هذه القصة قول الأعشى (واسمه ميمون ابن قيس).

كُوْنِي كمِثْل الذيْ إذْ غابَ رافِدُها	أَهْدَتْ لهُ من بعيدٍ نظرةً جذَعا
ما نَظَرتْ ذاتُ أَشْفارٍ كنظرتها	حَقًّا كما صدق (الذِّئبيُّ) [1] إذْ سجعَا
إذْ قَلَّبتْ مُقلةً ليستْ بِمُقْرفةٍ	إذْ يَرْفعُ الآلُ (رأسَ الكَلبِ) [2] فارْتَفَعَا
قَالتْ أَرَى رَجُلاً في كَفِّهِ كَتِفٌ	أَوْ يَخْصِفُ النعل، لَهْفِي أَيَّةً صنعا !!
فَكَذَّبوها بما قالت فَصَبَّحهُم	ذُو (آل حَسَّانَ) يُزْجِي الموتَ والشَّرعا
فَاستَنزَلوا أهْلَ (جَوٍّ) من مساكِنهمْ	وهَدَّمُوا شَامِخَ البُنيانِ فاتَّضَعَا

بعد أن غزا حسان الملك اليمني جديس وأبادها، وكان ذلك في أول القرن الخامس للميلاد على أرجح الأقوال بقيت (اليمامة) - وهو الاسم الذي أطلق على (جو) منازل طسم وجديس - بعد أن قتل حسان (اليمامة) بنت مر، بقيت وقد تفرق سكانها من القبيلتين ممن نجا من الموت، تفرق من بقي في البلاد،

(١) الذِّئبيّ كاهِن مشهور عند العرب وكلام الكهَّان الأسجاع.

(٢) رأس الكلب جبل لا يزال معروفًا في أعلى الخرج.

واندمج في القبائل العدنانية والقحطانية، وكان منهم من سكن جبلي أجا وسلمى، ومنهم من سكن البحرين (الأحساء وتوابعها).

ثم نزلت قبيلةُ عَنزة في تلك البلاد بعد تفرق القبائل العدنانية، خرجت تتبع مواقع القطر، يتقدمها عبد العزى بن عمرو العنزي. ثم جاورهم أبناء عمومتهم من بني حنيفة، حتى غلبوهم على أمرهم، وأصبحت السيادة لبني حنيفة وسمي وادي العرض باسمهم إلى اليوم. وما يزال من سلالتهم من يسكنه حتى اليوم، ومنهم بعض الأسر المشهورة في الرياض.

كيف نشأت مدينة الدرعية ؟!

لا نجد اسم (الدرعيـة) في شيء من الكتب القديمة التي بين أيـدينا، وأقدم ذكـر لهذا الاسم نجـده في مـؤلفات أنـاس من القـرن الحادي عشر الهجـري فما بعده.

وليس معنى هـذا أن بلـدة (الدرعيـة) لم تنشأ إلا بعـد ذلك الـزمن، لأن من ذكرهـا من المؤرخين المتأخريـن يربط زمن إنشـائها باسم (ابـن درع) جد الأسرة السعودية الكريمـة، ويربطه بزمن لا يتقدم على ستة قـرون من عهدنا الحاضر، أي في منتصف القرن التاسع الهجري.

ولكن الذي نـراه هو أن بلـدة الدرعيـة أقدم من ذلك العهـد بكثير، بخلاف اسم (الدرعية) فلا شك أنه حادث. ومما يؤيد قولنا:

١ - أن وادي العِرْضِ عِرْضِ بني حَنيفة كـان في الزمن القديم على درجة من الخصب، ووفرة المزروعـــات فيه، وكثرة السكان، وانتشار القـرى من أعلاه إلى أسفلـه، على درجـة عظيمـة من كل ذلـك، وبتـوالي القحط والجفـاف نضبت مياهه، وقلَّ سكانـه.

٢ - أن مـوقع بلـدة الدرعيـة في مكـان من الوادي مـن خير الأمكنة، سعـة وخصبًـا وصلاحًـا لـلاستيطـان، فإن الوادي عنـدمـا يقبل على مـوقع الدرعيـة ينفرش، وتتقـابل معه من الغـرب ومن الشمال أودية، ويتكون بينهـا مرتفعـات من (الطمي) الطين الذي تجرفـه السيول، فيكـوّن في جوانب الوادي مـرتفعات صالحة للـزراعة، ويشاهد المرء آثـار الحدائق والمزارع الدائرة كثيرًا بقرب الـدرعية وبين مواقع نخيلها في الوقت الحاضر.

٣ - لو رجعنـا إلى كتب الجغرافية القـديمة، لوجدنـــا أسماء كثيرة من القرى الواقعة في ذلك الوادي، وقد درست وجهلت. ونجد فيما نقرأ عديدًا من الأسماء

فيما بين منفوحة والعمارية ، ولا شك أن موقع الدرعية كان في القديم موضعًا لإحدى تلك القرى .

ولنستعرض مما بين أيدينا من الكتب كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني[1]، وهو يعدد أسماء قرى الوادي ، محاولاً ترتيبها ، وهو إن كان يمنيًّا بعيدًا عن تلك البلاد ، إلا أنه ينقل عن رجل نجدي هو أبو مالك أحمد بن سهل بن صباح اليشكري ، وبنو يشكر كانوا يسكنون في العرض عرض حنيفة ، ويسكنون في وادي مَلْهم . وها هي أسماء القرى الواقعة في العرض بحسب ترتيب الهمداني :

١ - القَرِيُّ .

٢ - القَلَسْتين .

٣ - المصَانِع .

٤ - الكِرس .

٥ - منفوحتان - «المنافيح» - منفوحة .

٦ - مُحرَّقة وتُسَمَّى (البادية) .

٧ - وَبْـرَة .

٨ - العَوْقَـة وصوابها : « عِرْقَـة » .

٩ - غَبْرَاء .

١٠ - مهشِّمَة .

---

(١) الهمداني من أقدم جغرافيي العرب ، فقد ولد سنة (٢٨٠) وتوفي منتصف القرن الرابع الهجري - انظر مقدمة كتاب «صفة جزيرة العرب» نشر (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر في الرياض) .

١١ - العمَّارية .

١٢ - فيْشَـان .

١٣ - الروضة وتسمى حزنـة .

١٤ - النَّقْب .

١٥ - أُبـاض [١] .

١٦ - الجِعَـاد .

١٧ - عَقْربَاء .

١٨ - الهَدَّار .

١٩ - العُيَيْن .

هذه القرى الواقعة في أعلى العرض، لم يبق منها معروفًا الآن سوى (المصانع) و(منفوحة) و(عرقة) و(العمارية) و(عقرباء) و(العيين) .

ولكننا عندمـا ننظر في هذه الأسماء على ترتيبهـا نجد (غَبْـرَاء) اسم قـرية فوق (عِرقــة) وقبل (العمَّاريـة) ونجد الآن في الـوادي في أعلى الـدرعية واديـا يـدعى شعيب غُبَيْـرَاء في مفيضه بوادي العرض نخيل كثيرة وآثـار مساكن قديمة .

وبقرب هذا الوادي تقع محلة من محلات الدرعية تسمى الآن (العـودة) .

وأهل نجد يطلقـون اسم العَوْد والعَـوْدة على القديم، وكثيرًا مـا يطلقون اسم العـودة على البلدة القـديمة فيقـولون : عـودة سـدير، ويعنـون بلدة من أقـدم بلدانـه، ويقولون : العود من مدينة الرياض، ويقصدون به قصرًا من قصورهـا القديمـة .

---

(١) ينبغي أن تكون بعد (العُيَيْن) وقبل (الهَدَّار) .

من هـذا نـرى أن بلـدة الدرعيـة ، كـان يطلق عليهـا قـديمًا اسم (غبراء) ثم أصبحت فيما بعد تعـرف بالعـودة ، وترك الاسم القديم ؛ لأن مـدلولـه عند أهل نجد غير مستحسن .

وبعد أن استقر ابـنُ دِرْع في المكان الذي منحه إياه ابن عمـه - على ما سيأتي تفصيله - أنشأ موضعًا غـرس فيه نخلا ، وبنى فيه بيوتًا ، فصار يعـرف بالدرعية نسبة إلى ابن درع ، وكان في القـديم محلة من المحلات التابعـة لبلدة غبراء ، التي عرفت فيما بعد باسم العودة ثم عودة الدرعية ، ثم الدرعية .

ويفهم عن كلام المتقـدمين أن غبراء هذه كانت على درجة من القـوة ، عندما غزا الجيش الإسلامي اليمامة ، فإننا نجدها من بين القرى التي لم تدخل في صلح خالد بن الوليد - رضي الله عنه - عندما صالح أهل الوادي كما ذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان .

ولا نجـد فيما بين أيـدينـا من الكتب ، تفصيـلات ، أو حتى إشـارات تتعلق بتاريخ هذه البلدة كغيرها من بلدان نجد العريقة في القدم .

وكل ما لـدينا من المعلومـات لا يتجاوز القـرن العاشر الهجـري وكله يتعلق بهذه البلدة بعد أن أصبحت تعرف بالدرعية .

مانع المُرَيدي وإنشاء (الدرعية)

إن اللمحات التاريخية التي نقرأها فيما كتب مؤرخا نجد ابن بشر وابن عيسى، لا تمدنا بالكثير من المعلومات عن نشوء الدرعية. وأبرز خبر نقرأه هو قدوم مانع بن ربيعة المريدي من بلد الدروع المعروفة بالدرعية من نواحي القطيف ومعه ولده ربيعة، قدما على ابن دِرْع رئيس الدروع، أهل وادي حنيفة وصاحب حَجْرٍ والجزْعة، وكان بينهما مواصلة؛ لأن كلاًّ منهما ينتسب إلى حنيفة، فأعطاه ابن درع المليبيد وغصيبة، فعمر ذلك المكان هو وذريته - هذا نص كلام ابن عيسى [1].

---

(١) كتاب تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٣٦.

أطلعني أحد الإخوان على كلام يتعلق بالموضوع، منقول من كتاب انتشر حديثًا، منسوب إلى شعيب ابن عبد الحميد الدوسري واسمه «متعة الناظر» - ص ٢٠٧ - ولغرابة هذا القول وصلته بهذا الموضوع رأيت إضافته هنا. قال ما نصه: (ودخلت المردَةُ مع بني لأم، واستولى شيخها مانع بن ربيعة بن مالك المرادي، بقوة من بني لأم على حَجْرِ اليمامة، وجمع أشتات القبائل الصغيرة المتفرقة، وأطلق عليها اسم المؤلفة (الموالفة) وناهَض بهم آل يزيد، حتى تغلب على قراها، ومنها (غبرا)، وكانت تسكنها عشيرة من عُرَينة بن نذير، حليفة سبيع بن صعب الهمداني، ويطلق على هذه العشيرة آل رميل، والذين من بقاياهم آل سويلم بن ناهض بن سعد، ثم تغلبت بنو يزيد على اليمامة، في عهد مانع بن ربيعة، وانحاز مانع مع إخوته إلى (غبرا)، واشتروا من فاضل بن بُجَيْر الرميلي جد آل السُويلم منطقة (الوسيط) وغرسوها، وأطلقوا عليها اسم (الدرعية) - كما مر - وبقيت أسرة مانع بن ربيعة المرادي فيها تحت سيطرة آل يزيد، بينما بقي أخواله النواصر في (عِرْقَةَ) وهم من بني عمرو بن تميم، وبقيت مشيخة المردة في أولاد عمومته، واندمجت في عنزة. مختصر من «الحلل السنية في سيرة أمراء نجد وأئمة الدرعية» انتهى.

وقال أيضا: (الدرعية وهي قرية صغيرة، وسط بساتين نخل بجانب وادي بني حنيفة، وهي إلى شمال الرياض، وكانت عِرْقَة مركز هذا الوادي، وهي بين الدرعية والرياض، ثم توسعت الدرعية بتوسع سلطان آل سعود أيام الإمام محمد بن عبد الوهاب، والإمام محمد بن سعود، ومن أتى بعدهما، وقد أصبحت عاصمة نجد، وسَوَّرها الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود في أواخر أيامه، عندما علم بمسير إبراهيم باشا إليه، وقد مر معنا سبب تسمية الدرعية، وكانت تعرف بـ(غَبْرَا). انتهى «متعة الناظر» - ص ٢٢٢.

أي إن اسم الـدرعيـة لم يطلق على البلـدة إلا بعد استيطـان مـانع بن ربيعـة وبنيه، وفي الموضعين المسميين منها المليبيد وغصيبة.

ومن هنا أطلق اسم الدرعية؛ لأن مانعا قدم من بلدة تعرف بهذا الاسم، من نواحي القطيف.

وإذا أردنـا أن نحلل هذا الخبر لنصل إلى حقائق يطمئـن إليها القارئ فإنه لا مندوحة لنا من:

١ – التحقق من موضع يسمى الدرعية في جهات القطيف.

٢ – الصلة بين سكان الجهة وسكان وادي حنيفة.

أما الأمر الأول فإننا نجد اسم الـدرعية في تلك الناحية من جهات القطيف، ولكنها ليست بلدة الآن، وإنما هي مكـان فيه آثار نخل وفيه مـاء قديم ثم حفر فيه حـديثًا بئـرٌ بآلـة الحفر الحديثـة، وتقع الدرعيـة هذه جنوبَ بُقَيـق، وغرب الظهران بميل نحـو الجنوب، وتبعد عن بقيق بما يقـرب من عشْرين ميلاً (اثنين وثلاثين كيلاً).

وإذن فما ذكره المتقـدمون كابن بشر وابـن عيسى وقبلهما الفاخري، لـه وجه من الصحـة.

وممـا ينبغي مـلاحظته أن أقـدم من ذكـر خبر قـدوم مانع بـن ربيعة إلى هـذه البـلاد، هو الشيخ محمـد بن عمر الفـاخـري في تاريخه الـذي نقل جل ما فيـه الشيخان ابن بشر وابن عيسى.

والفـاخريّ ولـد في بلدة التُّـوَيم في إقليم سُـدير سنـة ١١٨٦هـ وتوفي سنـة ١٢٧٧هـ.

ونأتي إلى الناحية الثانية وهي صلـة أهل هذه البلاد بسكان الجهات الشرقية، الدرعية الواقعة في المنطقة الشرقية ونواحيها.

لا شك أن الصلة كانت موجودة، بل وثيقة أيضا، ذلك أن سكان وادي حنيفة كلهم من ربيعة ما عدا من حالفهم فدخل فيهم، وأصبح يعد منهم. وربيعة استوطن قسم كبير منها تلك النواحي من المنطقة الشرقية كعبد القيس وغيرهم من القبائل، يضاف إلى هذا أن قبيلة عنزة التي سكنت وادي حنيفة قبل بني حنيفة أنفسهم، ثم حالفتهم فيما بعد وصاهرتهم وجاورتهم، كان قسم منها وقسم أيضًا من بني قيس بن ثعلبة عم بني حنيفة، كانوا يسكنون في الأمكنة الواقعة بقرب الدرعية.

ونجد ياقوتا يقول في «معجم البلدان» : (ركية لقمان هو لقمان بن عاد وهي ركية بثاج، قريب من البحرين، بين البحرين واليمامة كانت لبني قيس بن ثعلبة، ولعنزة، فغلبت عليها بنو سعد، وهي مطوية بحجارة، الحجر أكبر من ذراعين. قال الفرزدق :

ولولا الحياءُ زِدْتُ رأسَكَ هزْمةً   إذا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جوانبُها تَغلي

بعيدة أطرافِ الصدوع كأنها   ركيَّةُ لقمان الشبيهة بالدحلِ

وثاج هذا الذي فيه الركيَّة لا يبعد عن الدرعية الشرقية بأكثر من سبعين ميلاً. ويذكر البكريُّ في «معجم ما استعجم» أن عنزة مع قبائل أخرى من ربيعة كانت تحل في (النباج)، وهو مكان متصل بتلك الجهات يقع غربها في طريق المتجه إلى البصرة.

وهو غير نباج بن عامر فهذا في القصيم [1]، ويعرف الآن باسم (الأسياح).

إذن فإن قبائل ربيعة انتشرت في شرقي الجزيرة، فقسم منها استوطن العرض عرض بني حنيفة، وقسم منها انتشر فيما يعرف قديمًا باسم (البحرين) وحديثًا باسم (الأحساء) ثم (المنطقة الشرقية).

---

(١) النِّباج هذا يعرف باسم (القريتين : النباج وثَيْتَل) وعُرِف أخيرًا باسم (قريات، العليا والسفلى)، وانظر تحقيق هذا وقسم المنطقة الشرقية من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

ولا شك أن الصلة بين قبائل ربيعة الساكنة في شرق البلاد وفي وسطها كانت قوية كعادة القبائل العربية .

لا ندري علام عول الفاخري حينما نقل لنا خبر انتقال مانع بن ربيعة؟ ولكن من المعروف أن بعض علماء نجد كتبوا كتابات تاريخية لم تصل إلينا كاملةً، مثل الشيخ ابن بسام والشيخ المنقور وغيرهما، يضاف إلى هذا أن كل أهل قرية من قرى نجد في العهد الحاضر يحفظون من أخبار نشوء بلدتهم وانتقال سكانها أشياء لا نجدها مدونة، ولهذا فلا يستبعد أن يكون الفاخري أو من نقل عنه الفاخري، نقل الخبر عما هو متداول ومعروف بين سكان الدرعية القدماء أنفسهم .

جاور مانع وبنوه أقاربهم الحنفيين من سكان الوادي، فكان جيرانهم من الجهة الغربية الشمالية آل يزيد الحنفيين الذين من بقاياهم آل دُغيثر.

ومن الجهة الجنوبية الشرقية، وهي أسفل الوادي أبناء عمهم آل درع أصحاب حَجر والجزعة .

أما أعلى الوادي من الجبيلة إلى حريملاء فهو لآل معمر التميميين .

ولا نستطيع أن ندرك من أخبار تلك الحقبة البعيدة عنا من منتصف القرن التاسع الهجري حتى منتصف القرن الحادي عشر، لا نستطيع أن نصل إلى ما يتطلع إليه المؤرخ ويستفيد منه الباحث من معلومات، ولكننا اعتمادًا على ابن بشر وابن عيسى، نعلم أن بني ربيعة كثروا وانتشروا، وصاروا يتوسعون في البلاد المجاورة لهم حتى كان لهم اسم وذكر، ولا سيما في القرن الحادي عشر الهجري، حيث نجد ابن بشر يذكر أنه في سنة ١٠٣٩هـ حج مقرن وربيعة ابنا مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع . والعناية بتسجيل خبر حجهما يدل على شهرتها في ذلك الوقت .

ثم نجد أنه في سنة ١٠٦٥هـ ـ على ما يـروي الفاخري وابن بشر ـ قام وطبان ابن ربيعة بن مـرخان بن إبـراهيم بن موسى بن ربيعـة، فاستـولى على غَصِيبة. ونجد نصًّا في تاريخ ابن عيسى يقول فيه :

كانت ولايـة الدرعيـة قبل سنة ١١٣٩هـ لذريـة وطبـان، وأما آل مقرن فلهم غَصِيبة.

وفي سنة ١١٣٩هـ استقل محمد بن سعود بن مقرن بن مـرخان بولاية الدرعية كلها ومعها غَصِيبة. هذا كلام ابن بشر [1].

وقبل هذا لا نجد إلا نتفًا من الأخبـار هي على إيجازها لا تخلو من تضارب، نُجْمِلها فيما يلي :

١٠٨٤هـ - قتل أمير الدرعية ناصر بن محمد وأحمد بن وطبان. كذا في تاريخ ابن بشر (١/ ٧٠).

١٠٩٦هـ - سـار سعود بن محمـد أمير الدرعيـة مع عبد الله بن معمـر لغزو حريملاء. (الفاخري وابن بشر).

١٠٩٨هـ - سار أهل بلد حريملاء ومعهم محمد بن مقرن صاحب الدرعية، وزامل بن عثمان [2]، وتوجهوا إلى بلد سدوس وهدموا قصره وخربوه. «الفاخري وابن بشر».

١١٠٦هـ - توفي محمد بن مقرن بن مرخان صاحب الدرعية. «ابن بشر».

١١٠٧هـ - قتل إدريس بن وطبـان صاحب الدرعية. قتله يحيـى بن سلامة أبا زرعة، وملكها سلطان بن حمد القبس. «الفاخري وابن بشر وابن عيسى».

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ١/ ٢٣٥.

(٢) زامـل هذا هو صاحب (الخرج) عائذي النسب.

١١٢٠هـ ـ قتـل سلطان بن حمـد القبس رئيس الدرعيـة ، وتـولى بعده أخوه عبد الله ثم قتل . «ابن بشر» .

١١٢١هـ ـ تـولى في الدرعيـة موسى بن ربيعـة بن وطبـان . «ابـن بشـر وابن عيسى» .

١١٣٧هـ ـ مـات رئيس الدرعية سعود بن محمد بن مقرن وتـولى فيها زيد بن مرخان .

١١٣٩هـ ـ قتل ابنُ معمر زيدَ بن مرخان . «الفاخري وابن بشر» .

١١٣٩هـ ـ قتـل مـوسى بن ربيعة بن مـوسى ، وكان قد شـاخ في الدرعية . (كذا عبر ابن بشر، أي صار شيخًا لها أي حاكمًا) .

من هذه الأخبار المقتضبة نرى أن الدرعية يتداول إمارتها آل وطبان وآل مقرن . وفي حقبة قصيرة هي من سنة ١١٠٧ إلى سنة ١١٢١هـ - تولى إمارتها اثنان ليسا من الأسرتين المذكورتين هما سلطان بن حمد القِبْس وأخوه عبد الله .

ونحن وإن كنا نجهل هـذين الرجلين لكنـا لا نتفق مع الشيخ عبد الله فيلبي الذي يـرى أنهما من بني خالد استنتـاجًا من أن أمـراء الأحساء كانـوا من هؤلاء ، لأننا نـرى أن نفوذ أمـراء الأحساء لم يتغلغل في بـلاد نجد بـدرجة أنهم يـولون في القرى من يريدون توليتـه .

الدرعية تحت حكم آل سعود

إن أبرز الحوادث حول إمارة هذه البلـدة ما ذكره ابن بشر من انتقال إمارتها إلى محمد بن سعود بن مقرن في سنة ١١٣٩هـ.

لقـد تولى زيـد بن مرخـان بن وطبان بـن ربيعة بن إبـراهيم بن موسى إمـارة الـدرعية، بعـد وفاة أميرهـا سعـود بن محمد بن مقـرن في ليلـة عيد رمضـان من ١١٣٧هـ، وفي أثناء تـوليه الإمارة، قام محمد بن سعـود بن محمد بن مقرن فقتل عمه مقرن الملقب فهّاد بن محمد بن مقرن، ثم انتقل إلى العيينة.

وفي هـذه الأثنـاء وقع في العيينة وبـاء أفنى غـالب رجـالها، فطمع زيـد بن مـرخان أمير الـدرعيـة هو وأتبـاعـه - على ما يعبر ابن بشر - في أمـوالها وأرادوا نهبها، فسـاروا إليه بـآل كثير [١]، وبـــوادي سبيع وغيرهـم، فلما وصل الجميع (عَقْرَبًا) أرسـل خرفاش [٢] إلى زيـد وقـال لــه: إنـه مـا ينفعك نهب البـوادي وغيرهم لنـا، وأنـا أعطيك وأرضيك، وأقبل إلي أكلمك من قـريب وأنـاجيك. فسار إليه زيـد في أربعين رجلاً ومعهم محمد بن سعود وغيره، فأدخلهم قصره، ثم أدخل رجالا من قـومه في مكان، وواعـدهم إذا جلس زيد يـرمونه بـالبنادق فرموه ببندقين فلم يخطئانه فمات.

فتنبه محمد بن سعود ومن معه، ودخلوا في موضع، وتحصنوا فيه فلم ينزلوا إلا بأمانِ الجوهـرة بنت عبد الله بن معمر، ورجع محمد بن سعـود بمن معه من أهل الدرعية، فاستقل محمد بعد هذه بولاية الدرعية ومعها غَصِيبة» [٣].

---

(١) آل كثير من بني لأم من طيئ.

(٢) خرفـاش لقب عثمان بن حمد بن معمر، صاحب العُيينة إذ ذاك.

(٣) عنوان المجد (١/ ٢٣٥) وغَصِيبة من أحياء الدرعية المعروفـة.

طور جديد في حياة الدرعية

على طريق الدعـوة..

فيما كان العالم الإسلامي مستغرقا في هجعته، ومدلجا في ظلمته. إذا بصوت يُدَوِّي من قلب صحراء شبه الجزيرة. مهـد الإسلام، يوقظ المؤمنين، ويدعوهم إلى الإصـلاح، والـرجوع إلى سـواء السبيل والصراط المستقيم، فكـان الصـارخ المصلح المشهـور محمـد بـن عبـد الـوهـاب الـذي أشعل نـار الـدعـوة إلى الله فـاشتعلت، واندلعت ألسنتهـا إلى كل زاويـة من زوايا العـالم الإسلامي. وأخـذ يحض المسلمين على إصلاح النفـوس، واستعادة المجد الإسلامي القـديم والعز التليـد، فتبـدت تباشير صبـح الإصلاح، ثم بـدأت اليقظـة الكبرى في العـالم الإسلامي. هذا ما قاله «لوثروب» عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1].

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب[2]: لم يكن ظهور محمد بن عبد الوهاب في الوطن الذي ظهر فيه. . . وفي الوقت الـذي بدأت فيه دعوته. . لم يكن هذا أمرًا غير متوقع، بل إن ظهوره في هذا الـوقت . . وفي هذا الأفق هو نتيجة لازمة لمقومات صحيحـة اقتضتها حال المسلمين ودعت إليها. . . فقد عرفنـا ما صار إليه المجتمع الإسـلامي في القرن الثـامن عشر الميلادي، وعرفنـا ما كـانت عليه بلاد نجد في ذلك الحين.

كل هـذا كان الحافـز على مقاومة الشيـخ محمد بن عبـد الوهـاب لهذه البدع والخرافـات بالقول والعمل.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي – جزء أول.

(٢) محمد بن عبد الوهاب. . العقل الحر والقلب السليم.

وفي (العُيَيْنَـة) مسقط رأسه بدأت إيجابيته . . وناصره في البدء أميرها عثمان بن مُعَمَّر وقـام معه بهدم قبة يقـال إنها قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنـه ، وكانت مقامة قرب (الجُبَيْلَـةِ) حيث يقصدهـا الناس .

كانت هذه الحركـة هي الإشراقة الأولى لدعوة الإصلاح ، وقـد كان لهدم هذه القبة صـداه بين العامة . . إذ لم يكونـوا يتصورون أن هناك من يقدر على هـدمها دون أن يمسـه سـوء . . وتـوالت إيجابيـة الشيـخ المفكـر . . ولكن صـدى هـذه الإيجابية تعـدت المنطقة وتردد في الأحساء حيث الحـاكم القوي إذ ذاك سليمان ابن محمد بن غرير الحميدي ، الذي كانت له سيادة على حاكم العيينة . . فهدم القبة في نظره يهدده ويهدد حكمه في المنطقة .

وفي ظهيرة يوم من أيام سنة ١١٥٨هـ كان رجل في الرابعة والأربعين من عمره يسير راجلاً وخلفه فارس . . خارجا من العيينة .

فقد تلقى ابن معمـر رسالـة من حاكم الأحساء ينـذره فيها من أن بقـاء هذا الرجل - محمـد بن عبد الوهـاب - والإبقاء عليه معناه قطع الخراج عنـه و إنزال العقوبة به . . ويأمر حاكم الأحساء ابن معمر بقتل الشيخ .

ولكن ابن معمـر لا يستطيع أن يفعل ، فأمـر الشيخ بمغـادرة العيينـة فـورًا . ولعلـه أسر للفـارس أن يقتل الشيخ أثنـاء الطـريق [1]. ولكن إرادة الله كـانت أقوى . . فعاد الفارس واستمر الشيخ في طريقه إلى الدرعية .

---

(١) هـذا القـول كـان اعتمادًا على ما ورد في «عنـوان المجـد» لابن بشر، في طبعتـه الأولى، ولكن عُثِـر في (المتحف البريطاني) على مخطوطة أصح من المخطوطة التي ورد فيها ما نصه :

واعلم - رحمك الله - أني قد ذكرت في المبَيَّضـة الأولى أشياء نقلت عن عثمان بن معمر وفرسانـه أنه أمر بقتل الشيخ في الطـريق ، وغير ذلك . ثم تحقق عنـدي أنه ليس أصْـلاً بالكليَّـة ، فطـرحتها من هـذه المبيضة . انتهى ج ١ ص ٤١ - طبعة (دارة الملك عبد العزيز) سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

وفي المساء دَلَفَ إلى بيت أحد أهـالي الدرعية محمد بن سـويلم العُرَيني الذي تملكه الخوف من لجوء هذا الرجل إليه.

أخذ الشيـخ محمد بن عبـد الوهـاب يُهَدِّئ من روعه ويعظـه إلى أن استقرت نفسه وغلبت عليه المروءة والشهامة فاستضافه وأكرم وفادتـه.

ثم أخذ الخبر يشيع سرًّا في الدرعية عن وصولـه، وبدأ قلة من الناس يرتادون دار ابن سـويلم، ويستمعون للشيخ في مـواعظـه ودروسه. . وأصبحت الـدار مدرسة يلتقي فيها طلاب العلم على يده.

مضت أيام قلائل. . وأدركوا أن التستر سينكشف يـومًا ما. . وما عليهم إلا أن يخبروا حاكم الدرعية بلجوئه.

تدارسوا فيما بينهم الأسلوب، والطـريقة التي يمكن بها إخبار الأمير محمد بن سعود بالأمر، دون أن تؤثر السياسة والعلاقات بين الدرعية والعيينة على ذلك.

كانت ـ موضي بنت أبي وهطان ـ زوجة الأمير محمد بن سعود امرأة عرف عنها سمو أخلاقها ورجاحة عقلها. لذا فهي خير من يمكن أن ينقل الخبر إلى الأمير محمد بن سعود.

وتم الـرأي بإخبـارهـا بذلك. حيـث أخبرت زوجها الأمير محمـد بن سعـود بمقدم الشيخ لاجئًا إلى الدرعية، واستثارت فيه شيمته العربية وكرمه. . فما كان منه إلا أن سعى شخصيًّا إلى الشيخ في دار محمد بن سويلم حيث قابله، ودارسه وأدرك محمد بن سعود أنه أمام داعية إسلامي كبير.

إذَنْ لا بد من عقد معاهدة اشترط فيها الأمير :

أولا : أخشى إن أنـا سـاعدتك وكسبنـا المعـركـة أن تتخلى عني لتبحث عن حظك في مكان آخر.

ثانيًا : أن تترك لي بموجب قوانين البـلاد حق جباية الضرائب من رعـاياي، والفوائد الزراعية والتجارية، وأن لا تطلب إليَّ التنازل عن هذا الحق.

كانت هذه هي أبرز الشروط التي يريد أن يتأكد منها حاكم الدرعية.

وإذا بصوت الشيخ يصافح أذني الأمير محمد بن سعود :

أما عن المسألة الأولى فهات يدك أعاهدك على ذلك.

وأمـا بالنسبـة للمسألة الثـانية فـربما أنالك الله فتـوحات كثيرة تعـوضك عمّا تتقاضاه من ضرائب.

وفي ظل هذه المعـاهدة انتقل الشيخ محمد بـن عبد الوهـاب من دار محمد بن سويلم إلى المكان الذي أُعد لـه في ضاحية البجيري في وسط بساتين النخيل.

كان الأمير محمد بن سعود قد أمضى في الدرعية حتى لجوء الشيخ ثمانية عشر عامًـا في هدوء تـام بعد أن قضى على الشغب والتنـاحر وأبعـد (آل وطبان) عن الـدرعية دَرْءا لإثـارة الفتن، وكـان له مـا أراد، وهـا هو الشيخ يأتيـه مستنصرًا فينصره ويعاهده على نشر الدعوة والذود عنها.

في حمأة اليأس الذي غرق فيه العرب طوال سني الجهل والإهمال، كان الناس في مسيس الحاجة إلى الاطمئنان الروحي، لـذا ليس بمستغرب إقبال الناس على حلقات الدرس، التي أخذ ينظمها الشيـخ محمد في المسجد وفي المنزل، يحضرها الصغير والكبير. ووفد إلى الدرعية عـدد كبير من العيينة، ومن القرى المجاورة لتلقي العلم.. وكثر المهاجرون إلى الدرعية لهذا الغرض.. حتى إن بعضًا منهم تفرغ لـذلك تفرغًا تامًّـا، مما حَدَا بـالشيخ أن يؤمن لهم مؤونتهم، وما يحتـاجون إليه.. كما أخذ الشيخ على عـاتقه تأمين ما يلزم للوفـود من أهل البلدان والقرى والبوادي.

وبالـرغم من أن الدرعيـة كانت تعـاني أزمة اقتصاديـة خانقـة، ولـم يكن لها موارد تذكر، وكان أهل الدرعيـة أنفسهم يعانون الضعف وقلة المؤونة – كما ذكر ابن بشر – إلا أن الشيخ كـان يستدين لسـد حاجـات هؤلاء. . في ذمـة الشيخ مبلغ أربعين ألف محمديَّـة. . حين فتح الرياض.

في هذه الفترة تناقلت الركبان مـا يجري في الدرعية. . وبلغت عثمان بن معمر حـاكم العيينة. . والـذي كـان يلاقي مـن اللوم والتقـريع الشيء الكثير بسبب إخراجـه الشيخ من العيينة.

أراد ابن معمر أن يستدرك الأمر. . فتوجه إلى الـدرعية بركب حافل من أعيان بلدته. قاصدًا الشيخ، إذْ أدرك ما يُرجَى للدرعية من تقدم وازدهار وذكر، ولعل دافعه الأول خـوفه على سلطانه. . فإن تعـاون أمير الدرعية محمـد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب يعني شيئًا كبيرًا.

حل في الدرعية وتقدم إلى الشيخ بمعاذيره، مبديًا أسفه، طالبًا منه العودة إلى العيينة، واعِـدًا إياه بالمسـاعدة، وشد العضـد والمعاملـة الحسنة، ولكن الشيخ اعتذر إليه بأنه لن يتخلى عن صديقه الأمير محمد بن سعود الذي ساعده وسانده وفتح له ذراعيه.

عـاد عثمان بن معمـر إلى العيينـة وهو يـرى المستقبل الـذي ينتظـر العيينـة، والمشاكل التي سيقابلهـا في بلده، لعلمه بمدى سخط أهل العيينـة عليه لموقفه غير المشرف من الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

كانت حلقات الدرس تقـام نهارًا. وكان الكثير من طلاب العلم يلجأون إلى العمل ليـلاً ليؤمنـوا معيشتهم، كان الإقبـال على تلقي العلـم من طلابـه يشكل الكتيبة الأولى لبث الدعوة ونشرهـا.

ولما كانت تعاليم الإسلام تفرض الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته فقد بدأت الـدرعية بقيـادة الأمير محمـد بن سعـود والشيخ محمـد بن عبد الـوهـاب تخطط

للمستقبل. فنشر الدعوة الصحيحة، والعودة إلى الإسلام الخالص تحتاج مع الإقناع والترغيب - الذي أخذ الشيخ على عاتقه مهمتها، في بث الرسائل لمشائخ القبائل وأمراء المدن والقرى يدعوهم فيه إلى الخير - هذا الإقناع وهذا الترغيب يحتاجان إلى إعداد قوة حربية تقف إلى جانب الحق تذود عنه، وتهبُّ للعمل ساعة أن لا يكون للإقناع والدعوة باللين والمحبة مكان.

يصف الدكتور طه حسين هذا الأسلوب في محاضرة له عن «الحياة الأدبية في الجزيرة العربية» بقوله: (من الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد [1] في نجد قد أحاطت به ظروف تذكِّر بظهور الإسلام في الحجاز، فقد دعا إليه صاحبه باللين أول الأمر فتبعه الناس ثم أظهر دعوته.. وأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر. ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر. ثم أخذ يدعو الناس فمن أجاب منهم قبل منه، ومن امتنع شن عليه الحرب، وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحوا بحياتهم في سبيله).

---

(١) ليس بمذهب جديد. فهو مذهب السلف الصالح. والإمام محمد بن عبد الوهاب حنبلي المذهب إلا أن الدكتور وغيره كانوا يطلقون أسماء مختلفة على هذه الدعوة، ومن أشهرها (الوهابية) ولعله أراد بـ(الجديد) الجديد في نظر أهل ذلك العصر.

... الدرعية مركز الحركة الإصلاحية

ازدهر العلم في الدرعية، وبدأت انطلاقة الحركة الإصلاحية، فوصلت موجتها إلى أقصى البلاد العربية ثم تجاوزتها بعد ذلك إلى ما وراءها كما سنأتي على ذكره في فصول قادمة.

ونبغ من تلامذة الشيخ محمد الكثير من الطلاب، ولما رأى استكمال استعدادهم، بعث بعدد وفير منهم إلى مختلف البلاد العربية لبث الدعوة وشرحها، فبعث إلى مدن الحجاز والعراق والأحساء والكويت واليمن وعسير وبادية الشام وأطراف الخليج العربي.

واستطاع هؤلاء الدعاة أن يقوموا بواجبهم بِبَثِّ الدعوة مما أثلج صدر الشيخ، وطمأنه على تفهم دعوته الداعية إلى العودة إلى الدين الصحيح، المنزه عن التيارات الوافدة من خارج الجزيرة العربية من عادات وتقاليد بعيدة كل البعد عن جوهر الدين وتعاليمه.

وكانت نجد الجزء الوحيد الذي لم تدخله هذه التيارات، مما ساعد على انتشار الصباح الوليد الذي انبثق من الدرعية.

بين (الدرعية) و(الرياض) و(الأحساء)

مؤرخا نجد ابن بشر وابن عيسى لم يذكرا لنا شيئًا ذا أَهَمِّيَّةٍ عن فترة ما بين تولي الأمير محمد بن سعود زعامة الدرعية سنة ١١٤٠هـ/ ١٧٢٦م إلى سنة ١١٥٩هـ. . . أي إلى بعد لجوء الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية.

ولكنهما أشارا ــ والثاني ينقل عن الأول ــ إلى أن حاكم الرياض آنذاك ١١٥٩هـ قام بغزو منفوحة بجيش مكون من أهل الرياض والصّمَدة من الظفير. مما حدا بالدرعية للتدخل ومناصرة أهل منفوحة.

والمعروف أن دهام بن دوّاس أمير الرياض استطاع أن يوقد نار الحرب بينه وبين الدرعية مدة تقرب من ربع قرن كان ينتصر مرة، وينهزم أخرى، إلا أنه بالرغم من كل هذا لم يستطع الاستيلاء على الدرعية. وإنما كانت حربًا سِجَالاً في المناطق التي تفصل بين المدينتين وأغلبها في جوانب بلدة الرياض، لأنه كان في الغالب، هو المغزو، والمهاجَم - بفتح الجيم -. وفي إحدى هذه المعارك سنة ١١٦٠ هـ قتل فيصل وسعود ابنا الأمير محمد بن سعود.

ولم يكن دهام بن داوس هو الوحيد الذي لجأ إلى الحرب لزعزعة حكم الدرعية التي أخذت تتجلى زعامتها في المنطقة.

كان خوف أمراء البلاد المجاورة على نفوذهم من أسباب التفاهم، وإقامة المواثيق فيما بينهم للقضاء على زعامة الدرعية ونفوذها الديني والسياسي، الذي أخذت تبسطه على البلدان والبوادي.

وكانت (الأحساء) و(العُيَيْنَةُ) المنافستين الرئيستين للدرعية. كانت الأولى تحت إمرة سليمان بن محمد بن غُريرٍ الحُمَيديّ والثانية بإمرة عثمان بن حَمَدِ بن مُعَمَّرٍ.

لم يكن عثمان بن معمر يظهـر العداء للدرعية، فأهل العُيَيْنَـة ينظرون إليه على أنـه هـو المسئول عـن ردة الفعل التي حدثـت لدى إخـراجـه الشيخ محمـد من بلده. . وكان حديث الأهـالي لا يخرج عن هذه الدائرة، كما دار بينهم بأن أميرهم على اتصال سري بصـاحب الأحساء، لـلاتفاق معـه على مجابهة خطر الـدرعية وقرر بعض أهالي العيينة قتل عثمان. . وانتدبوا بعضًا منهم لتنفيذ ذلك.

وفي منتصف شهر رجب ١١٦٣هـ وهو خـارج من صلاة الجمعة تصدت له الجماعة فقتلتـه. . وكان ممن تـولى ذلك حمد بن راشد وإبـراهيم بن زيـد الباهلي وموسى بن راجح.

وعادت الأحساء تبحث عن عضـو جديد يساعدها على التصـدي للعاصمة السعوديـة، فوجـدت ذلك في أمير (نَجْران) حسن بن هبـة الله المكرمي، حيث عقد اتفاق أعقبه غزو الدرعية. . لوأد زعامتها في عقر دارهـا.

إلا أن الشيخ محمد بـن عبد الوهـاب والأمير محمد بن سعـود استطاعـا عقد صلح مع أمير (نجـران) عـاد بعـده إلى بـلاده، وذلك لـوضع حلفـائه مـوضع الضعف مما اضطرهم إلى الانسحاب.

وقبل ذلك في عـام ١١٧٢هـ قـام عُـريعرِ بن دُجين أميـر الأحسـاء، بعـد سليمان بن محمد بغزو الـدرعية، وحاصرها حصارًا طويلاً، ورمـاها بالمدافع إلا أنه عاد دون أن ينال منها، حيث كانت القوة المدافعة تبطل كل خططه.

استقرار للدعوة
وانتشار .. ثم انتصار..

لم تكن الدرعية خلال المدة الآنفة الذكر منطوية على نفسها، بل كانت تقوم بتجهيز الجيوش والغزوات.

وكان الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود، أحد أمراء الجيش قد اشتهر بالشجاعة والإقدام، وقد قام بعدة غزوات مظفرة.

واستمرت الدرعية تقود الجيوش تلو الجيوش تكافح وتناضل، تارة غازية وأخرى مدافعة.

إلى جانب ذلك كانت الدعوة تَجِدُ الصَّدَى الطيب لها.

وكانت الدرعية قد أصبحت المركز الثقافي الأول في نجد، والشيخ محمد يبذل كل جهده وجهوده في هذا المركز، حتى أصبح من تلامذة الشيخ من يتصدر للتدريس والتثقيف، وانتشر تلامذته في المدن والقرى والبادية ينشرون الدعوة، ويدعون لها.

وتأكد للشيخ والأمير ثبوت جذور الدعوة، وانتشار سناها على كل الجزيرة العربية.

توفي الأمير محمد بن سعود عام ١١٧٩هـ ١٧٦٥م بعد أن قضى السنوات الطوال من حكمه في الإنشاء والعمران والفتوحات، ونشر الدعوة، مطمئناً إلى أنه أدَّى واجبه، وأن أعظم مهمة في حياته قد سُوِّيت - وهي توطيد الدعوة وتثبيتها - كما أن ما أعدّه لمرحلة الإصلاح الإسلامي وما خططه لها شد من إيمانه وثقته، وطمأنه إلى القوة العسكرية التي أنشأها، تاركًا لابنه الأكبر عبد العزيز توطيد أركان الحكم، والقضاء على المنافسين لعاصمته.

وفي السنة الماضية التي تبوأ فيها الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود العرش في الدرعية، زار (مسقط) الرحالة (كارستين نيبور) وهو من أوائل الغربيين الذين زودوا الغرب بوصف مفصل يمكن الاعتماد عليه، بصورة عامة، عن جزيرة العرب إجمالاً، وقد أشار إلى أن المذهب الحنبلي - الذي يعتنقه الإمام محمد بن عبد الوهاب وأهل نجد - قد غزا منطقة الخليج العربي، ولا سيما الساحل الجنوبي الشرقي منه، فقد كان معظمهم حنابلة، مما يدل على وصول دعاة التوحيد من الدرعية إلى تلك المناطق، وانضمامها إلى حكم الدرعية، وقد أشار (نيبور) إلى أن الدعوة تدخل - مع الوقت - تعديلات ذات أهمية على كلٍّ من عقائد العرب ونظام حكمهم، كما أن بعض الشيوخ - شيوخ قبائل ساحل الخليج العربي - والذين كانوا - قبلاً - قادرين على مقاومة جيرانهم، لم يعودوا في موقف يمكنهم من أن يصمدوا أمام عدد كبير من هؤلاء الشيوخ - شيوخ الدرعية - المتحدين. كما أن محمد بن عبد الوهاب يأخذ الزكاة من جميع الشعب، حتى يهيئ للفقير حاجته وحتى ينصر دين الله [1].

من قول (كارستين نيبور) يتضح - ما أشرنا إليه - في فصل سابق - من نجاح دُعَاةِ التوحيد الذين سبق أن بعث بهم محمد بن عبد الوهاب إلى المدن والقرى، ومنها منطقة ساحل الخليج العربي. حتى أصبحت هذه المنطقة مما يشمله حكم الدرعية ويخضع لها.

في أواخر حكم الإمام محمد بن سعود أصبحت الدرعية بحق سيدةَ الموقف في نجد خاصة، وأخضعت مدنًا كثيرة في نجد لولايتها.

كانت أهم المشكلات التي تقابل الأمير الجديد - عبد العزيز - هي توطيد أركان الحكم، وتأكيد تثبيت الدعوة، ومواصلة ما بدأ به والده من بناء وعمران وفتوحات.

---

(١) عرض المملكة لقضية (البريمي) ج ١، ص ١٠٥.

ولكن المتربصين بالدرعية ـ التي ترفع لواء الدعوة ـ أخذوا ينقضون على الأمير عبد العزيز، وينقضون مواثيقهم التي سبق أن عقدوها مع الأمير الراحل. وكان أول من نقض الميثاق أمير الرياض دهام بن دواس، الذي سبق أن عقد حلفًا مع الأمير محمد بن سعود. .

لم تكن هذه من دهام أول مرة. . فإنها الثالثة. . وأخذ دهام يثير الحرب في وجه عبد العزيز.

وماذا يكون أمام الأمير غير النضال والحرب، في سبيل ما بدأ به والده من شد أزر الدعوة، والقضاء على أعدائها وأعداء الدرعية كعاصمة سياسية، استقطبت القبائل، والتفت حولها المناطق، وانضمت إلى ولايتها.

بدأ ينظم عبد العزيز جيوشه. . يقود بعضها بنفسه، ويقود البعض منها ابنه سعود، ويخضع القبائل والقرى، والبدو الذين انفضوا عن الدرعية بعد وفاة والده، أو إلى فتوحات أخرى جديدة.

ثم بدأت تتسابق القبائل على مبايعته ونصرته وأخذ اسم الدرعية في صعود إبان حكم عبد العزيز.

فبعد قيامه بعدة غزوات منذ توليه الحكم ١١٧٩هـ إلى عام ١٢٠٠هـ لم يحدث ما يستحق الذكر. . إذ إن الحروب في نفسها ضمن حدود نجد، كانت تسير على وتيرة واحدة، دافعها الأول الخوف من انتشار نفوذ الدرعية.

ولعل من أهم أحداث هذه الفترة استيلاء الأمير عبد العزيز على الرياض عام ١١٨٧هـ بعد قتال عنيف، ووقائع عديدة، قتل فيها من أهل الرياض ما يقارب الألفين، ومن أهل الدرعية ألف وسبع مئة، وفرَّ دِهامُ بن دَوّاس من الرياض، قاصدًا الأحساء. حيث وافته المنِيَّة.

ملخص الغزوات
التي قام بها الأمير عبد العزيز وابنه سعود

وأما أهم الغزوات التي قام بها الأمير عبد العزيز وابنه سعود في هذه الفترة ـ كما ذكرها ابن بشر وابن غنام وابن عيسى :

- في سنة ١١٨٢هـ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عُنَيْزَة .

- وفي سنة ١١٨٣هـ غزا الأمير عبد العزيز القَصيم ، وبايعته على السمع والطاعة .

- في عام ١١٨٩هـ غزا الأمير سعود بن عبد العزيز بُرَيدَة ، واحتلها صلحًا وانقاد أهل القصيم ، وبايعوا عَلى السمع والطاعة .

- في سنة ١١٩٠هـ غزا الأمير عبد العزيز عربان آل مُرَّة في الخرج .

- وفي سنة ١١٩٣هـ استولى الأمير سعود بن عبد العزيز على بَلدَةِ حَرْمَة في إقليم سُدَيْرِ.

أخذ نجم الدرعية يتألق ويرتفع ، وبدأت الإمارات والدول المجاورة تخشى على نفسها نفوذ الدرعية . . فكان أن أخذت بعض الدول المجاورة تشن غارات دعائية ضد الدعوة وصاحبها ، وبخاصة الدولة العثمانية ، والتي كانت تخشى من الدعوة على نفوذها الديني أوَّلاً ، والسياسي ثانيا . إلا أن بعض الأتراك اعترفوا بصحة الدعوة رغم مقاومتهم لها ، فقد اعترفوا ـ وهم آنذاك أكبر أعداء أَيَّةِ دعوة تصدر من نجد ـ بأن الدعوة سليمة صحيحة .

وقد جاء في تقرير (للسير هارفورد جونز برجز) قوله : (عندما وصلت إلى البصرة عام (١١٩٨هـ ـ ١٧٨٤م) كان أحسن الترك اطلاعًا ، يدرك أن التعاليم

الصادرة من الدرعية عندما فحصت بـالنص للقرآن الكريم، وجدت صحيحة تمامًا، ومتفقة مع أنقى تفسير للقرآن).

إذن فإن الأمير عبد العـزيز يُجابـه هذه المرة بأسـاليب جديـدة من الإعلام إلى جانب السـلاح . . فالحرب الإعـلامية تؤتي ثمارهـا في مناطق مـا تزال تحت تأثير تيارات وافدة، ولذا فإن مهمة عبد العزيز شاقة وقاسية.

تدخل خارجي في شؤون الدرعية

أول تدخل في شـؤون الدرعيـة ـ من خارج نجـد ـ جاء من العـراق، فزعيم المُنْتَفِقِ في العـراق ثُـوَيْني بن عبـد الله بن محمـد آل شبيب، أحد كبـار شيـوخ القبـائل في العراق، والـذي ورث الزعـامة عن أبيـه عام ١١٧٥هـ ـ واستخدمـه العثمانيون ليحرج موقفهم أمام الدرعية.

فسار في المحـرم عام ١٢٠١هـ بجيش لجب مـن المنتفق وأهل الزُّبير وبعض القبائل مثقلاً بالذخائر والعتاد.

توجه بقواته إلى القصيم، فوصل بلدة (التَّنُّومَة) [1] فحاصرها أيامًا، وأمطرها بقـذائف المدفعية، واحتلهـا، وقتل أهلهـا جميعًا إلا مـن استطاع منهم الفـرار، وواصل زحفه إلى بُرَيـدة وحاصرها – وكان هـدفه دكَّ معاقل الدرعيـة واحدًا إثر واحد.

وفي أثناء حصاره لبريدة بلغه أنَّ سليمان باشا والي بغداد قد عيَّن حمود بن ثامر ابن سَعْدُون زعيماً لبـادية المنتفق، فقفل راجعًـا ليثأر لنفسه بالجيش نفسـه الذي أراد به غزو الدرعية. إلا أنه هُزِم وتفرقت الجموع من حولـه.

ومن عجائب الأمور أن يعود ثويني هذا في العام نفسه تقريبًا إلى الدرعية، لا غازيًا، بل لاجئًا إلى الإمام عبد العزيز، وأقام في الدرعية بضعة أشهر. ولعل والي بغداد العثماني استشف خطر مقام ثويني في الـدرعية، فاستماله واسترضاه حيث عاد إلى المنتفق، وعين زعيماً على باديته، وما زال يجتر هـزائمه أمام ابن عمِّه وأمام قوات الدرعية.

---

(١) التَّنُّومَة من قرى الأسياح في شرق مدينة بريدة.

وفي أثناء ما كان الإمام عبد العزيز وابنه سعود وإمام الدعوة يعملون على تثبيت الأمن والاستقرار، تحرك الشريف غالب بن مُساعد ـ أمير مكة ـ فجهز حملة عسكرية بقيادة أخيه عبد العزيز، وبقوة تقدر بعشرة آلاف جندي مزودة بالذخيرة والعتاد، سار بها الشريف عبد العزيز إلى نجد - يستميل في طريقه القبائل والعشائر من قبائل الحجاز وشَمَّر ومطير.

ولما كان شريف مكة يمني نفسه بالإطاحة بزعامة الدرعية، وليوطد لنفسه مكانًا لدى الباب العالي فقد لحق بأخيه عبد العزيز ليتولى شخصيًّا قيادة الجيش ومعه قوات كثيرة، والتقى أَخَاهُ عبدَ العزيز وسارا معًا إلى (الشَّعْرا) وحصرها فلم يفز بطائل، فتوجه إلى (البُرُود) في إقليم السِّرِّ، وحصره أيضًا فلم يقدر عليه، وتسرب الملل إلى قواته فتفرقت عنه، ورحل الشريف عائدًا إلى مكة.

أما ما كان معه من قبائل مُطَير وشمَّر فقد تجمعت قرب حائل، وأدرك الإمام عبد العزيز أن عليه القضاء على هذه الفئة ليضعف بذلك مساندة الشريف أو سواه، فبعث بابنه سعود على رأس قوات كبيرة، قامت بمهاجمة مُطَير وشمَّر ونازلتها في قتال شديد انهزمت بعده، وقتل في هذه المعارك مُسْلط بن مُطْلق الجَرْبا الفارس المشهور، وأحد كبار قادة قوات شمَّر ومطير.

كانت الآستانة ـ آنذاك ـ المحرك الأول لكل العمليات التي تدور ضد الدرعية، فقلق السلطان العثماني للنجاح الذي تحرزه الدرعية، وأمر ولاته في كل من البصرة وبغداد ومكة وباشوات مصر وسورية لتُحِدَّ من هذا النجاح.

لذا أعاد الشريف ـ أمير مكة ـ الكرة بعد عام لغزو الدرعية، ولم يكن حظه بأوفر من حظه في عام سبق، فانهزم وعاد إلى مكة.

وفاة الإمام محمد المجدِّد الشيخ محمد ...

في عام ١٢٠٦هـ، وبالتحديد في يوم الإثنين من آخر شهر شوال في العام المذكور توفي إمام الدعوة وباعث نهضتها شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب بعد أن بعث نهضة إسلامية فتية تحارب البدع والخرافات والضلال، أمضى حياته في نشر كلمة الله ورفع رايتها والذود عنها.

وخَلفَ من بعده خلفٌ سار على نهجه. وقد وضع رحمه الله العديد من المؤلفات القيمة والكنوز الثمينة منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - كتاب التوحيد.

٢ - كتاب الكبائر.

٣ - كشف الشبهات.

٤ - السيرة المختصرة.

٥ - السيرة المطولة.

٦ - مختصر الهَدْي النبوي.

٧ - نصيحة المسلمين في الحديث.

٨ - مختصر الشرح الكبير.

٩ - مختصر الإنصاف في الفقه.

١٠ - أصول الإيمان.

١١ - فضائل الإسلام.

١٢ - أحاديث الفتن.

١٣ - مختصر زاد المعاد.

١٤ - مختصر صحيح البخاري.

١٥ - مسائل الجاهلية.

١٦ - استنباط القرآن.

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الفتاوى والمسائل الفقهية والرسائل المختلفة في الشريعة الغراء.

وخلفه ابنه الشيخ حسين بن محمد بن عبد الوهاب الذي كان قاضيًا للدرعية في حياة والده. رحمهم الله جميعًا وجزاهم الله عن الإسلام خيرًا.

كان نضال الدرعية في سبيل عقيدة وفي سبيل مبدأ، لذا كانت تقاوم بكل ضراوة كل عدوان، مستندة إلى إيمانها بما تسعى إليه من نشر راية الإسلام.

ثويني تؤويه الدرعية
ثم يعيد الكرة لحربها...

كانت الـدرعية تتلقى تحركات أعـدائها، فثـويني (زعيم المنتفق) لم ينسَ بعد ثأره. وكـان والي العراق سليمان بـاشـا ـ الـذي أعـاده إلى الزعـامـة يعده لمهمـة التصدي للدعوة المنبثقة من الدرعية، ولاختصار نفوذها تنفيذًا لأمر السلطان.

أخذ ثـويني يجهـز جيوشه، وسـار بها حتى نزل (الجَهْـراء) قرب الكـويت، وأقـام فيها ثلاثة أشهر يستنفر العـربان والقبائـل، وقـرر الزحف على نجد بادئًا بـ (القطيف)، ولأول مـرة يستعمـل المـراكب من البصـرة لنقـل بعض جنوده وذخائره على أمل ملاقاته على شواطئ القطيف.

وكـانت الدرعيـة آنئـذ تعج بالألـوف من الـوفود، والقبـائل والعشائر، فقـد ازدهرت تجارتها، وكثرت أسواقها، وتجلت سيادة الموقف لها في نجد، وبلغ أمير الدرعية ما يبيته ثويني، وكان جيش الـدرعية بقادته قد أصبح أسرع حركة وأدق تنفيذًا، وأشد صلابة. كيف لا.. وهم يعملون لحساب قضية عقدية ؟!

تحرك الأمير سعود بن عبد العزيز ومعه أهل العارض، ومحمد بن معيقل أحد قادة الجيـوش لدى الإمام عبـد العزيز على رأس أهل الخرج والـدواسر والأفلاج والوشم، وسدير والقصيم وجبل شمر.

أما ثويني فبعد أن حشد جنوده توجه من (الجَهْراء) إلى (الشِّبَاك) في ديار بني خالـد، وبينما كانت قواتـه تعد العدة للإقـامة على هذا الماء، وبينما كـان ثويني يدلف إلى خيمته إذ بضربة من رمح تقضي عليه.

داهمه أحد موالي جُبور بني خالد ويسمى (طُعَيْس) بالضربة القاضية، وكان ذلك في الرابع من المحرم ١٢١٢هـ.

كان قتل ثويني في أثناء وصول قواته، لـذا حاول رفاق ثويني إخفاء الأمر عن الجيش، حتى إنهم كـانوا يطلبون لـه القهوة والسجـائر وغيرها لتـدخل عليه في خيمتـه، وذلك للتمويـه أمام الجنـد كيلا يفت هـذا في عضدهم، إلا أن هـذا التمـويه لم يطـل، فقد عـرف بـه القوم، واضطـروا تحت تأثير أمل الانتصـار في القتال لإعـلان ولائهم وطاعتهم لأخيه نـاصر. إلا أن صفوف الجيش تخاذلت، وأصابها الخلل بعد سماعهم لزحف قـوات الدرعية، فانفضت عن الأمير الجديد ناصر، الذي اضطر هو أيضًـا للعودة من حيث أتى، ولكن فرسان الأمير سعود قد لحقت به، ونازلت فلـول الجيش المنفض، ودارت بينهم معركة انتهت بانهزام جيش ناصر أخي ثويني. وتسمى هذه المعركة باسم وقعة (سجية).

اطمأن الأمير سعود بعـد رد هذا العـدوان والقضاء عليـه، وعاد إلى الـدرعية ليضع في سجل نضالها صفحـة مشرقة من صفحات النضـال من أجل العقيدة الإسلامية.

وشريف مكة يحاول، ثم يصالح بحذر

كان وقع الصدمة شديدًا على والي العراق ـ سليمان باشا ـ. فَقَتْلُ ثُويني الذي أعده لمجابهة الدرعية، وانهزام قواته بقيادة أخيه ناصر بعد موته أمر ليس من السهل تقبله من مثله.

كما أن الأمر نفسه حز في نفس الشريف غالب ـ أمير مكة ـ الذي كان يتطلع بحذر إلى امتداد نفوذ الدرعية.

ففي العام نفسه الذي انتهى فيه ثويني زعيم المنتفق أخذ أمير مكة يعد العدة لغزو الدرعية، فحشد الجموع وبث دعاته وافتنّ في الإعلام ودعاواه ضد دولة الدرعية وزعمائها، فاجتمع له من الجند والعدد والعتاد ما أدار رأسه بالغرور، وكان حريا بجيش مثل هذا أن يقوده هو بنفسه.

سار بجيشه ونزل (الخرمة) وأخذ يستعرض جيشه منتشيًا مسرورًا، مؤكدًا لنفسه أنه بعد أيام قلائل سيقضي على دولة الدرعية التي أخذت تقلق مضاجع الدول المجاورة، وتقلق السلطة العثمانية.

وبينما كانت خمرة الغرور تدور برأسه، دارت عليه الدائرة، فقد داهمت القواتُ التابعة للإمام عبد العزيز الشريفَ غالبًا في عقر داره (الخرمة). وكانت تتألف بقيادة هادي بن قرملة على رأس قبائل قحطان، وربيع بن زيد بالدَّوَاسر، مع بعض القبائل الأخرى التي كان الأمير سعود بن عبد العزيز قد أمرها بالزحف معًا لصد الشريف وقواته، حيث كان الأمير آنذاك يقوم بغزواته على حدود العراق.

انهزم الشريف أمام ضربات الجيش المهاجم وعاد إلى مكة يفكر في شيء ويضمر في نفسه ما عجز عنه صراحة في ميدان العمل.

أخذ يراسل الإمام عبد العزيز ـ طلبا للصلح ـ مدللا على حسن نِيَّاته ـ بدءًا بالسماح له ولأهل نجد بأداء فريضة الحج بعد أن منعهم منها.

... ووالي بغداد يغزو جيشه الأحساء ..!

كان والي بغداد ـ سليمان باشا ـ يتابع الأحداث التي تجري، ولم ترق له نتيجة الصلح، وهو الذي ما زال يجتر هزائم مبعوثه ثويني، وبعد مشاورات مع الباب العالي في الآستانة، قرر أن يتولى وزيره - علي كخيا - وهو صاحب المكان المرموق في العراق، أن يتولى بنفسه جيشًا يهاجم به نجدا.

توجه علي كخيا بجيش مكون من بغداد والأكراد والبصرة وعشائر المنتفق على رأس زعيمها حمود بن ثامر، وآل بعيج والزقاريط وآل قشعم، وبوادي العراق وعربان شمر المقيمة على حدود العراق، وأهالي الزبير. هذا إلى جانب قوة نظامية، وبلغ عدد خيالة هذا الجيش ثمانية عشر ألفًا إلى جانب المدفعية الحديثة إذ ذاك.

سار هذا الجيش الجرار إلى الأحساء، واستولى عليه إلا أن القوة التابعة للإمام عبد العزيز لم تستسلم، وتحصنت في حصني (الكوت) و(صاهود) بالرغم من أن الوزير علي كخيا بذل جهدًا كبيرًا، إلا أن القوة لا تزيد على مئة رجل يرأسهم محمد بن سليمان بن ماجد ـ وهو من أهل ثادق ـ لم يستسلموا، وحاصر الوزير كخيا هذين الموقعين شهرين، من السابع من شهر رمضان ١٢١٣هـ إلى السابع من شهر ذي القعدة ١٢١٣هـ[١].

ولما كانت الدرعية على علم بهذا الغزو، فقد توجه الأمير سعود إلى الأحساء لنجدة الحاميات المحاصرة، وما إن بلغ علي كخيا ذلك حتى انسحب بعد أن دمر المعدات الثقيلة والذخائر، إلا أن الأمير سعودًا قرر قطع خطة الرجعة على القوات المنسحبة فتوجه بقواته إلى (ثاج) ـ قرية مشهورة بين الأحساء والبصرة.

---

(١) تاريخ الأحساء، ص ١٣٦.

وكان علي كخيا قد نزل بالقـرب منها على ماء يسمى (الشباك). وحدثت بين الفريقين منـاوشات انتهت بطلب الوزير علي الصلح، شرط أن يعـود علي كخيا إلى العراق، على أن يؤمنهـم الأمير سعود على حياتهم.

عاد الأمير سعود إلى الأحساء حيث عزز القوات التي فيه، ولّى عليه محمد بن سليمان بن ماجـد، وكر عائدًا إلى الدرعيـة، ليقف إلى جانب والده ليشيِّـدا معًا بناء دولتهـم، ويدرسـا على ضوء الأحداث مـوقف جيرانهم. سـارت الأمور كما ينبغي ـ وأمير مكة لـم يحدث شيئًا.

... سعود يكرّر الحج، ويتهيّأ لغزو كربلاء

حج الأمير سعـود بن عبد العـزيز إلى مكـة في عامي ١٢١٣ و١٢١٥هـ على رأس ركب كبير من حجاج نجـد. وكان لوصول الأمير إلى مكـة سنتين متتاليتين وقعه الكبير في النفوس؛ إذ كـان يغدق الصدقات، ويوزع الهبـات، وكانت له هيبة لدى نفوس كل الذين شاهدوه، وتحدثـوا إليه عن قرب، أو الذين شاهدوه في موكبـه بين فرسانه، ممـا كان له الأثر السيئ لـدى أمير مكة؛ حيث لاحظ أن الأضواء مسلطة على الأمير النجدي من دونه.

عاد الأمير سعـود من حجه عـام ١٢١٥هـ إلى الـدرعية ليقف مـع والده على التقـاريـر التي وردت إليهما من الموالين للـدرعيـة من المدن والعشـائر، افتضت نتائج دراسـات هذه التقارير، والتي اتضـح منها كما يظهر أن والي العراق يـدبر أمرًا، فيجب أن يقـوم الأمير سعود بالمبـادءة، وأن يهاجم والي العراق قبل أن يلم شعثه.

وفي مطلع العام التالي ١٢١٦هـ أخذت الدرعيـة تعد العدة لمعركة مصيرية، وما إن أشرف شهـر ذي القعدة حتى كان الأمير سعود يحاصر (كـربلاء) وتسلق برجاله أسوارها ودخلها، مؤكدًا الدعـوة الإصلاحية الكبرى، وضرورة العودة إلى الدين الصحيح.

هذا وأمير مكة يتابع هذه الأحداث والتطـورات، يغذّيها ما تركه الأمير سعود في حجه عـام ١٢١٥هـ من أثر، كيف العمل وزحف الدرعيـة وصل إلى العراق ودخل كربلاء؟!!

المضايفي يلتجئ إلى الدرعية ..!

نسي الشريف عهد الصلح بينه وبين الإمام عبد العزيز، وأخذ يتدبر الأمر، ويتصل بالقبائل، لتنضم إليه في الغزو ـ وبينما هو كذلك، إذ خرج عليه وزيره عثمان المضايفي الذي تركت الدعوة المشرقة أثرًا في نفسه ـ ولعله تحدث مع الأمير سعود عندما حج عام ١٢١٥هـ وبحث في شؤون الدعوة التي أعلنتها الدرعية بقيادة المصلح المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

خرج المضايفي من مكة ليفد على الإمام عبد العزيز ـ وهناك في الدرعية ـ بايعه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعاد المضايفي ينزل (العُبَيْلا) وهي قرية بمنطقة الطائف، وأخذ يجمع حوله عربان الحجاز والطائف وتربة.

فوجئ الشريف غالب بهذه التحركات غير المنتظرة، ولما كان مستعدًّا لغزو نجد. فقد قرر تصفية حسابه مع وزيره (المضايفي) أولاً.

طير المضايفي رسله إلى الدرعية ليؤكد لها عزم أمير مكة على غزو نجد، ويطلب إنجاده بقوة تسانده على صد الزحف، فبعث الإمام عبد العزيز بسالم ابن شكبان ومسلط بن قطنان وأحمد بن يحيى، وهادي بن قرملة، على رأس قوات من أهل رَنْيَة وبيشة وسبيع وتَرَبَة والبقوم وقحطان وعتيبة، وانضمت هذه القوات إلى المضايفي في (العبيلا)، والتقت أميرَ مكة وجيشه فيها، كانت الغلبة فيها للمضايفي. ولم يجد الشريف بدًّا من العودة إلى الطائف، وتحصن فيه واستعد للحرب إلا أن القوات التي بقيادة المضايفي تغلبت على استحكاماته، وكُسِرَ الشريفُ عائدًا إلى مكة. وأقام عثمان المضايفي بالطائف حيث ولاه الإمام عبد العزيز أميرًا عليه.

وفي غمرة هذه الأحداث كان الأمير سعود يقوم بإخضاع بعض القبائل، وبث الدعوة ونشرها، حيث بلغه ما قام به الشريف من نقض لعهد الصلح.

عاد الأمير سعـود ووجهته الحجـاز. ونزل بقـواته في وادي العقيق، متحـاشيًا شن الحرب على الشريف خشيـة على الحجـاج من ويـلاتها. حـاول الشريف غالب استمالـة بعض الحجاج لمنازلـة الأمير سعود، وكانت مكـة تعج بالحجيج من الشام ومصر والمغرب، وحجاج مَسْقَط على رأسهـم إمام مسقط وحاكمها، وكان من كل هـؤلاء قوات كبيرة لا يستهان بها، ولكنهم تخاذلوا - بعـد أن فكروا في الخروج لمنازلـة الأمير سعود، ولسـان حال كل منهم يقـول : (ولِـمَ الحرب ؟ ولا نـاقة لي فيهـا ولا جمل ؟). وعادوا إلى أوطـانهم في الـوقت الذي أخـذ الأمير سعـود يزحف إلى مكـة، ووجد الشريف نفسـه وحيدًا، ولا طـاقة لـه بملاقـاة سعود، فتراجع إلى جدة حيث حصنها وحفر حولها خندقًا كبيرًا.

سعود في مكة منتصرًا ..
ومحذرًا السلطان العثماني ...!

دخل الأمير سعود إلى مكة محرمًا ملبيًا دون قتال . . ثم عيّن الشريف عبد المعين أميرًا عليها .

في صفحات سابقة أشرنا إلى أن الحروب التي تشن على الدرعية كانت بوحي من الآستانة ، لذا فقد بعث الأمير سعود إلى السلطان سليم الثالث في الآستانة بهذه الرسالة [1]: -

من سعود بن عبد العزيز السعود إلى سليم .

أما بعد فقد دخلت مكة في اليوم الرابع من محرم ١٢١٨هـ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم ، بعدما هدمت ما هناك من أشياء وثنية ، وأُلغيت الضرائب إلا ما كان منها حقًّا ، وأثبت القاضي الذي وليته أنت طبقًا للشرع ، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس ، فإن ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته .

التوقيع : الواثق بالله المعبود ، سعود

هذا هو نص الرسالة التي بعث بها الأمير سعود إلى السلطان سليم الثالث ، والتي رأى فيها أن سلطته الزمنية والدينية قد نيلت ، ولم يكن هذا حال السلطان ، بل إن الغرب أيضًا خشي مما يقع من اضطراب في الشرق الأوسط يؤثر فيه .

---

(١) تاريخ نجد - لأمين الريحاني .

وعـاد الأمير سعود إلى الـدرعيـة بعد أن حـاصر جدة أيـامًـا إذ كانت منيعـة بأسوارها والخندق المقام حولها .

وكان الإمام عبد العزيز في الاثنتي عشرة سنة الأخيرة من حياته يُسَيِّـرُ الجيوش بقيادة ابنه سعود الذي بويع بولاية العهد سنة ١٢٠٢هـ .

الدرعية يَزْدَهِرُ عمرانها ...

وفي عهد الإمام عبد العزيز ازدهـرت الحياة في الدرعية، وخيم الأمن والسلام على ربوعها، وعلى جميع البـلاد التي والتها، وقد رفرف علم الدرعيـة على الديار النجدية والحجـاز، وتم غزو بعض ألوية العـراق، وخيم الرخاء والخير، وأمنت النفوس بعـد خوف، وأصبح عهـد حكم الدرعية مضرب الأمثـال، فالمسـافرون آمنون على أرواحهم وأمـوالهم، وأَخَـذَ كل من يفكر في السرقـة أو السطو يحسب حساب الدرعية، حتى أن الإبل إذ أضلهـا أصحابها وفقدوها فسوف يجدونها في الدرعيـة، في مراع خـاصة أقـامها الإمـام عبد العـزيز لها. وكل من يجد ضـالة يوصلها أو يبعث بها إلى الدرعية خشية أن تكتشف عنده أو عند قبيلته، وما على صاحبها إلا أن يثبت ملكيتها لها فيأخذهـا.

فلـو ضـاع فلسي في الفـلا من مـلازم   لَجِيءَ بـــه من وسـط وَادِي الضراغم

وقد أشار أحـد علماء العراق [1] في كتابـه «عنوان المجد في بيان أحـوال بغداد والبصرة ونجـد» إلى حكم الإمـام عبـد العزيـز بأنـه: (حصل الأمن والأمـان في البادية والحضر، وكانت الإبل والخيل والأنعـام ترعى في الصحاري وتلد، وليس عنـدها سـوى رجل واحـد، ولا يستطيع أحد من قبـائل العـرب أن يأخذ منهـا شيئًا).

كما أشار هوجارت [2] (بأن الإمام عبد العزيز حصل على ولاء كل شبه جزيرة العرب باستثناء القسم الجنوبي الغربي منـه).

---

(١) الشيخ إبراهيم بن فصيح بن صبغة الله الحيدري.

(٢) جزيرة العرب.

ومن الناحية التعليمية ازدهرت الدرعية وكثر فيها طلاب العلم وبناء المدارس، وكان عبد العزيز حاكم الدرعية المهاب، يقابل بنفسه الطلاب الصغار، ويشجعهم على الدراسة، ليبعث في نفوسهم حب التنافس عليها، كما كثر فيها العمران، وشيدت فيها الدور والمساكن، وأحيطت مداخل (وادي حنيفة) في عهده بعدد من الأبراج للمراقبة، وازدحمت بالسكان من كل أنحاء الجزيرة العربية طلبًا للعلم والتجارة، كما أنها أصبحت محطة التقاء طرق المسافرين إلى الحجاز والعراق وقطر والبحرين وغيرها من أنحاء الجزيرة.

استشهاد الإمام عبد العزيز...!

عاد وليّ عهد الدرعية الأمير سعود من فتح مكة، بعد أن ولَّى إمارتها و إدارة شؤونها الشريف عبد المعين بن مساعد، عاد إلى الدرعية وهو لا يعرف ما يُخطَّط له من مكيدة، عاد ليقف إلى جانب والده عبد العزيز، يدير دفة الحكم، وينظم أمور الدولة.

وبينما كان الأمير سعود في بستان له فيه نخيل، عرف باسم (مُشَيْرَفَة) كان والده عبد العزيز في مدينة الدرعية، ويومها كان في الدرعية وافد غريب، رجل عليه سمات العجم، يلبس ملابس رَثَّةً، ويتردد إلى المسجد (مسجد الطُّريف). . والعرب هنا كعادتهم قد أكرموا وفادته، وما بحثوا عن أمره. ما دام قدم لطلب العلم، حتى أنهم لم يحاولوا التحقق من شخصيته أو معرفة اسمه.

كانوا يدعونه (الدرويش) وكلمة الدرويش يطلقها أهل نجد عادة على من كان في مثل زي هذا الرجل. . ثياب رثة، لا عمل له، مُنْطَوٍ على نفسه لا يعرف ولا يُعرف.

وبينما كان الإمام عبد العزيز في مسجد الطُّرَيْف يؤدي صلاة العصر، إذا بالدرويش ينقض عليه وهو ساجد بخنجر كان يخفيه بين طيات ثيابه، ويغمده في خاصرة الإمام عبد العزيز. كان ذلك في شهر رجب ١٢١٨هـ - ١٨٠٣م.

أُخِذ المصلون وأُرْتِجَ عليهم لهول المفاجأة. أما الدرويش فقد حاول أيضًا قتل الأمير عبد الله شقيق الإمام عبد العزيز الذي كان يصلي إلى جانبه. . . إذْ مال الدرويش عليه بكل ثقله. إلا أن ما يتمتع به الأمير عبد الله من قوة بدنية، جعلته يتغلب على المعتدي، ونهض الأمير عبد الله الذي لجأ إلى سيفه وقتله.

كانت المفاجأة على جمهور المصلين شديدة الوقع، مما أحدثت الفوضى داخل المسجد.

قُتِل الدرويش . . ونُقل الإمام عبد العزيز المصاب إلى القصر وأسلم الروح بعد نقله بوقت قصير.

بلغ الأمر الأمير سعودًا فأسرع إلى المدينة الدرعية، وكان في بستانه . . لقد كان المصاب أليما فقد فجعت الدرعية بحاكمها العادل، وموطد نهضتها، ورافع لوائها . . عز على شعبه قتله . . وران على الدرعية وجوم من الأسَى واللوعة.

اجتمع وليّ العهد سعود بأمته . . بقضاتها . . وزعمائها . . وقادتها، وألقى فيهم كلمة يدعوهم فيها إلى الصبر على تحمل الفجيعة، وبويع سعود يومها خلفًا لوالده عبد العزيز.

وتنتصب أمام القارئ علامات من الاستفهام كثيرة . . من هذا الدرويش؟ ومن أين جاء؟ وهل وراء عمله يَدٌ أجنبية؟

ولما كان أهم مرجع لنا ولكل كاتب عن نجد قديمًا هو تاريخ ابن بشر. فإننا لم نجد مع الأسف شمولا لهذه القضية يتكفل بجلاء غوامضها، إلا أن هذا الدرويش هو أحد سكان (كربلاء) وأن قدومه كان لاغتيال الأمير سعود بن عبد العزيز. ثأرًا منه لغزو كربلاء، إلا أنه لما عجز عن إدراك سعود غدر بوالده، وهناك قول آخر، وهو أن هذا الدرويش كان كرديًّا، من العِمادِيَّة قرب الموصل، يدعى عثمان، ولم يكن الباعث له على القتل معروفا. وربما كان مدفوعًا استؤجر ليقوم بهذا العمل؛ إذ كان سُنِّـيًّا ليس له من مأرب ديني من عمله[1].

(١) تاريخ نجد لفلبي، واسمه الصحيح (Saudi Arabia) وعرب خطأ بهذا الاسم.

الدرعية قاعدة مملكة ...!

وفي عهد الإمام عبد العزيز توطدت زعامة الدرعية ، وأصبحت القاعدة السياسية والتجارية والمركز الثقافي الإسلامي الأول في شبه جزيرة العرب . ولعل في القائمة التالية دلالة على ما كانت عليه الدرعية من مكانة سياسية ، فإلى جانب حكمها لجميع نجد، كانت تمد نفوذها إلى البحرين والحجاز واليمن وعسير. . تدير أمورها ، وتعين ولاتها وقضاتها ، وتهيمن على مجرى السياسة فيها .

المنطقة	الأمراء	القضاة
تهامة وما يليها من اليمن	عبد الوهاب أبو نُقْطَة	-
الطائف والحجاز	عثمان المُضايفِي	-
عُمان	صقر بن راشد	-
الأحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	-
القَطِيْف	أحمد بن غانم	-
الزُّبارةُ والبَحْرَين	سليمان بن خليفة آل خليفة	-
وادي الدَّوَاسِر	رُبيّع بن زيد	سعيد بن حِجّيْ
الخَرْج	إبراهيم بن عُفَيْصان	محمد بن سويلم
المِحْمَل	ساري بن يحيى بن سويلم	-
الوَشم	عبد الله بن حمد بن غَيْهَب	عبد العزيز الحُصَين
سُدَير	عبد الله بن جُلاجل	حمد بن راشد العريني ومحمد بن عثمان بن شبانة
القَصِيم	حُجَيلان بن حمد	عبد العزيز بن سُويلم
جبل شَمَّر	محمد بن عبد المحسن بن فايز	-
بِيْشَة	سالم بن شكبان	-
رَنِيَة	مسلط بن قطنان	-
تُرَبَة	حمد بن يحيى	-

أما الدرعيــة فكان قضاتها الشيخ حسين وعبد الله ابنـا الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، كما كان الشيخ عبد الرحمن بن خميس إمامًا للأمير عبد العزيز.

ولعل عدم توافر أسماء الأمراء والقضاة في بعض البلدان التي ذكرناها يعود إلى تنقلهم من بلد إلى آخـر، وهناك منـاطق أخرى لم تـذكر ولكنها مـوالية للـدرعية وأميرها ، وتابعة لها في بعض أجزاء شبه الجزيرة العربية .

سعود يتولى الحكم
في خضَمّ أحداث مبيتَة ..!

في غمرة من الألم لمصاب الدرعية بفقيدها عبد العزيز نهض سعود بأعباء الحكم بعد مبايعته، وفي عهد والده كان وليًّا للعهد وقائدًا لجيشه.

ومن استقراء الصفحات السابقة يتضح أن الدولة العثمانية كانت تواصل اهتمامها ومتابعتها لمجريات الأمور في الجزيرة العربية، خصوصًا بعد تهديد الدرعية للعراق، ودخولها مكة، والهزائم التي مُنيت بها قوات هذين البلدين، وهي التي تخضع للباب العالي - في الآستانة - ويقوم بإصدار (الفرامانات) بتعيين ولاتها وأمرائها.

إذَنْ فالدولة العثمانية ما زالت ترقب بحذرٍ توسع نفوذ الدرعية، وتهديدها للولايات العثمانية في العراق والحجاز وغيرهما.

وها هو زعيم الدرعية الجديد الأمير سعود أخذ يجهز جيشه لغزو (البصرة)، بل سار إليها وحاصرها، وشدّد الخناق عليها، وهدم جميع ما حولها من القباب كما حاصر (الزبير) اثني عشر يومًا، وقام بغزوات تأديبية لبعض العشائر.

ولم يَنْسَ الأمير سعود في خضم الأحداث التي عاشها منذ حياة والده، وحتى وهو في غزواته هذه، لم يَنْسَ أن الشريف غالبًا عاد إلى مكة وعزل أميرها الذي سبق أن عينه الأمير سعود. وأن الشريف غالبا يفكر في (قصة الثأر). لهذا أمر سعود ببناء حصن في وادي فاطمة للضغط على شريف مكة، كما أمر أحد قواد جيشه، وهو عبد الوهاب أبو نقطة بأن يهاجم جدَّة بكل ما لديه من قوة.

نزل عبد الوهاب أبو نقطة على ماء قرب الساحل على بعد يوم ونصف اليوم من مكة، ولما علم الشريف غالب بذلك توجه إليه بقواته ليسبق إمدادات الدرعية إليه.

تقاتل الفريقـان. إلا أن الغلبة كانت لعبد الوهـاب على الشريف مما اضطر الأخير إلى العودة إلى مكة بعد تشتت قواتـه.

بـدأ الضغط على الشريف يتجلى بوضـوح، فإلى جـانب الحصار العسكـري والاقتصـادي الذي ضربتـه دولة الـدرعية عليـه أصيبت الجزيرة العـربية كلهـا بجفاف لـم تعهـده من قبل، واستمر حوالي ثماني سنوات، وقـد ارتفعت أسعار الحاجات الضروريـة ارتفاعـا سَيِّئًا لا يكاد يصـدق.. كان نصيب الحجـاز منه مضاعفا.. إذ إن الدرعية تستورد من بحر الخليج مواردها الغذائية وتحصل على المؤن عن طريق موانئه.

كانت كل هـذه العوامل مشجعـةً على تشديد الحصـار، وتضييق الخناق على شريف مكـة، فاهتبل الأمير سعـود هذه الفرصـة، وأصدر تعليماتـه إلى كل من عبد الوهاب (أبو نقطة) وعبد الرحمن المضايفي، وسالم بن شَكْبان، بأن يتوجهوا بكل قواتهم إلى مكة، وأن يحتلـوا ضواحيها وأن لا يسمحوا لقـافلة الحج الشامي بدخول مكة إذا كانت مُسَلحةً.

رأى الشريف غالب أنـه في موقف لا يحسـد عليه، فليس في مقدوره مقـاومة جيش هـذه قوتـه، فطلب الصلح، وَاعِـدًا بأن يتوجـه إلى الـدرعية بعـد الحج مباشرة لتقديم البيعة - والطاعة والولاء للأمير سعود.

وافق قادة الجيش السعودي على ذلك. ودخلوا مكة حجاجا آمنين، وبذلك تنفست مكة الصعداء، وعادت الأمور إلى مجاريها، وقدَّم الشريف غالب الهدايا الثمينة لهؤلاء القادة، وبعد أن أدوا مناسك الحج عاد كل منهم إلى مَقَرِّ إمارته.

صلح مع شريف مكة على دَخل...!

ولكن . . . هل الشريف غالب جاد في عقد الصلح أم أنها خدعة منه استخدمها حتى يجمع شتات أمره ؟

بعد رحيل القوات السعودية مباشرة حاول مع بعض الحجاج السوريين والمراكشيين البقاء في مكة للخدمة العسكرية ، متظاهرًا بأن هذه هي أوامر عبد الله باشا العظم أمير الحج السوري ، وبناء على تعليمات صدرت إليه – من الباب العالي – في الآستانة . ولكن الحجاج رفضوا طلب الشريف وعادوا إلى بلادهم . وقام الشريف ببناء الحصون حول أسوار جدة ، وإعادة تجديد الخندق المحيط بها ، وكان هذا كافيا لإدانته بخرق شروط الصلح التي تمت بينه وبين قادة الجيوش التابعة للأمير سعود .

مملكة موحّدة .. لأقطار الجزيرة ..!

في الـوقت الذي كـان الشريف يعقـد فيه الصلـح مع القادة العسكـريين تم صلح مماثل ومبـايعة من قبل قبائل حَرْب في المدينـة، وبعث إليهم الأمير سعود بعض العلماء لنشر الدعوة الإسلامية السمحـة بينهم. مملكة موحدة . . لأقطار الجزيرة . . ! تـوحدت دولة عربيـة مسلمة بزعامـة سعود بن عبد العزيـز، مملكة مـوحدة من نجـد والحجاز واليمن وعُمان، دولـة شـاسعة الأطـراف، شعارهـا التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كتب المسيو (باراندييه) السفير الفرنسي في الآستانة إلى (تاليران) وزير خارجية فرنسا بعد مضي وقت ليس بطويل على تولي سعود الحكم يقول :

(. . أصبح للمرء أن يتوقع رؤية مملكة عربيـــة جديدة. قادرة على أن تظفر ـ بمضي الـوقت ـ بـــدرجـة من العظمـة تضعها في مستـوى واحد مع السلطـات الأخرى في آسيا . . .) [١] كما أشـار المؤرخ البريطاني الـرسمي (لوريمـر) : بأن اتجاه الحكومة الـوهابية في نجد . . في جوهـره اتجاه تمدُّن وحضارة، وكان من بين أهـدافهم الـرئيسـة التي وضعـوهـا نصب أعينهم إقـامـة الأمن والنظـام وإخماد الحروب المحلية والمنازعات الشخصية) [٢].

منذ تـولي الأمير سعود وهو يعمل لتـوطيد أركان الـدولة، والعمل على تثبيت الدعوة . . فأصبح في كل عام إمَّا غازيا لإطفاء الفتن والقضاء عليها، أو حاجا يقـود الحجـاج المسلمين ويجتمع بهم . . وكـان في كل حججـه يكسـو الكعبـة المشرفة بالقز الأحمر والقيلان الفاخر.

---

(١) ديوان محمد علي باشا – ١٩٢٦م.

(٢) لوريمر، مجلد ١، ص ١٠٦٤.

وكان أن ولَّى شريف مكة الـذي بايعه بعد أن خادعه عـدة مرات ، ولاه إمارة مكة بشروط أملاهـا عليه ، منها : التمسك بكلمة التوحيد ونبـذ البدع ، وكانت سيرة الشريف في تلك المدة رهبة لا رغبة ، وقد كان يبطن ما لا يظهر.

وبالرغم من سني القحط والغلاء وكثرة الفتن والمؤامرات ، فقد بلغت الدرعية ذروة الازدهـار والمجد السياسي .

اضطربت الـدولة العثمانية اضطرابًـا شديدًا لتـوحيد جزيرة العـرب تحت لواء الدرعيـة ، والدعوة الحازمـة ، وشعرت بالخوف لا على مقـامها في جزيـرة العرب فحسب ، بل خشيت تقلص سيادتها في مصر وسورية والعراق .

الدعوة الإصلاحية تنتشر خارج الجزيرة

في الوقت الذي قررت الدولة العثمانية العمل الإيجابي تجاه الدرعية ـ والدعوة الوهابية كما كانوا يسمونها ـ في ذلك الوقت نفسه كان الغرب يدرس في عمق هذه الحركة منذ عام ١٨٠٣م ففي لندن وباريس أجريت محادثات مختلفة مع عدد من الشخصيات البارزة. وكان الرحالة الأسباني (دمنغو بادياي لبليخ) أحد أركان هذه المباحثات، وفي عام ١٨٠٦م وصل إلى الإسكندرية وقابل فيها المسيو (شاتوبريان) واستكمل معه المحادثات التي تمت في لندن وباريس.

فمن هو دومنغو هذا..؟ يعتقد بعض المؤرخين أنه جاسوس للإمبراطور نابوليون الذي رغب منه التعرف على موقف المسلمين في البلاد العربية من حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجمع المعلومات عن دولة الدرعية، جريًا وراء تحقيق مخططاته في الشرق.

وذهب بعضهم إلى أنه أحد موظفي (الأميرالية البحرية الفرنسية)، وفي مهمة لتدوين أرصاد فلكية في البحر الأحمر.

مهما كان هذا الرجل فقد وصل إلى مكة ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م حاجًّا باسم الحاج علي بك العباسي. وكان يحيط نفسه بحاشية كبيرة بمن ينتسب إلى العباسيين.

لم يخامر الشك أحدًا في صحة اسمه ونسبه، فتضلعه في اللغة العربية ومعارفها لا تدعو إلى الشك في أمره (١).

وليس هذا مكان بحث شخصية هذا الرحالة، ولكننا نستقرئ من ذلك اهتمام الغرب بمجريات الأمور في الجزيرة العربية.

---

(١) «اكتشاف جزيرة العرب».

وها هو إمبراطور فرنسا نابليون الأول يرسل دبلوماسيًّا اسمه (لاسكاريس) إلى الدرعية في عام ١٨١١م والذي تمكن من عقد عدة اجتماعات مع الأمير سعود الذي لم يفت الإمبراطور الفرنسي في غمرة مشاريعه الاهتمام بالجزيرة العربية والدولة السعودية (١).

لقد أشرنا فيما تقدم إلى اهتمام الدولة العثمانية بما يجري في قلب جزيرة العرب، ولا سيما بعد تهديد الدرعية للعراق.

---

(١) «عبد العزيز آل سعود، سيرة بطل ومولد مملكة». [بعد كتابة ما تقدم والاطلاع منذ وقت قريب على كتاب أُلِّفَ ونشر حديثًا عن (لاسكاريس) ظهر لي أنه لم يصل إلى الدرعية، وأن ما ذكر الدكتور منير العجلاني في كتاب «عبد العزيز آل سعود» بحاجة إلى إعادة النظر].

الدولة العثمانية تتهيأ لحرب الدرعية...

ما أطلت سنة ١٢٢٦هـ ـ ١٨١١م حتى أخذت الدولة العثمانية تهيئ لغزو الدرعية والحجاز، وتعد العدة لذلك، وتم إعداد ذلك في شهر ذي القعدة من السنة نفسها، ووجهت الدولة للقيام بهذه الاستعدادات إلى مصر، وكلف الباب العالي واليها محمد علي باشا تدبير الحملة العسكرية وتولي إدارة أمورها وتوجيهها.

أعاد محمد علي تنظيم القوات، وجنّد لها قطعات من مصر، وجعل على رأسها ابنه أحمد طوسون، وتوجهت هذه القوات بالسفن عبر البحر الأحمر وألقت مراسيها في ميناء (ينبع) من مدن الحجاز.

الجيوش الغازية تصل إلى الحجاز...

دخل أحمد طوسون بقواته إلى ينبع دون قتال، وأما عامل سعود عليها فلم يكن لديه من القوة ما يجابه به القوات التركية، مما اضطره إلى الانسحاب من وجه أحمد طوسون الذي كانت تقدر قواته بأربعة عشر ألف مقاتل، مع كامل المعدات من مدافع وأسلحة وخيول.

بلغت أنباء الغزو البحري الأمير سعودًا وهو يومذاك في الدرعية. فاستنفر سكان البلاد من بدو وحضر، وأمر بوجوب التجمع في المدينة المنورة، وأسند قيادة هذه الجيوش إلى ابنه الأمير عبد الله، الذي يظهر لأول مرة على مسرح الأحداث في تاريخ الجزيرة العربية.

اكتمل اجتماع القوات المستنفرة في المدينة، ووصلها الأمير عبد الله بقواته من نجد، التي بلغت ثمانية عشر ألف مقاتل منهم ثمان مئة فارس.

سار الأمير عبد الله بالقوات من المدينة ونزل (الخيف) من وادي (الصفراء) بين ينبع والمدينة (على الطريق بين جدة والمدينة الآن).

أخذ الأمير عبد الله ينظم صفوفه ويوزع قواته لمجابهة الزاحف من ينبع، واقتطع جزءًا منها بقيادة زعيم قبائل حرب (سعود بن مُضيَّان) ينزل مكانًا آخر، احتسابًا لمقابلة العدو لو جاء من جهة أخرى، وليكون في الوقت نفسه فرقة احتياطية.

سار أحمد طوسون ووصل إلى وادي (الصفراء) وقامت قواته بهجوم على جيش الأمير عبد الله الذي أرسل بعض طلائعه لصد هذا الهجوم، إلا أن الطلائع انهزمت، وقتل بعض أفرادها. وشدد طوسون الضغط على جيش الأمير عبد الله الذي استدعى القوة الاحتياطية برئاسة (ابن مضيان)، ودارت المعارك

بين الفريقين ثلاثة أيام كان القتلى فيها من الطرفين كثيرين . وقد انهزم البدو من صفوف جيش الأمير عبد الله ، مما زاد الضغط عليه حيث انكشفت بعض مواقعه ، لكن عبد الله لم ييأس ، فدفع بكل قواته إلى المعركة بشكل فدائي ، كان له أشد الأثر على جانب قوات طوسون التي انهزمت ، ولاذ من استطاع منهم بالفرار إلى ينبع ، حيث لجأوا إلى سفنهم الراسية هناك ، وكان منهم أحمد طوسون .

وقتل في هذه المعركة أحد الأمراء السعوديين ، هو الأمير مقرن بن حسن بن مشاري بن سعود ، كما قتل هادي بن قَرْملة أحد قادة الجيوش السعوديين المشهورين .

في حين لجأت القوات المنهزمة إلى ينبع لتضمد جراحها قاد الأمير عبد الله جيشه إلى مكة ماراً ببلدة (بَدْرٍ) ، واجتمع بوالده سعود في مكة ، وكان قد وصل إليها حاجًّا للمرة الثامنة ، وكان يرافقه من القوات المحاربة ما يضاهي عدد القوات التي مع الأمير عبد الله ، وذلك استعدادًا لما قد يطرأ من حوادث .

عاد الوالد والولد بعد الحج إلى الدرعية بعد صرف بعض القوات إلى التمركز بالمدينة المنورة لمواجهة احتمال أي هجوم قد تقوم به القوات التي ما زالت على الساحل ، بلغت هزيمة أحمد طوسون والده محمد علي باشا ، الذي كان يواصل مباحثاته مع الدولة العثمانية باستمرار ، لإعادة الكرة بحملة أكثر استعدادًا وعددًا .

وأخذ محمد علي يجهز الجيوش ، وأخذ يُمِدّ بها ابنه أحمد طوسون الذي ما زال في ينبع .

وفي عام ١٢٢٧ هـ وصلت قوات كثيرة بقيادة أحمد بونابرت إلى ينبع ، وانضمت إلى جيش طوسون تحت قيادته .

وأخذ طوسون يبذل الجهد والمساعي لاستمالة القبائل.

يقول أحد مؤرخي الحجاز: (اجتمع كثير من عساكر البر والبحر في ينبع ومعهم صناديق من الأموال: فأخذوا في تأليف العربان واستمالتهم ببذل المال، وكان ذلك بعد مكاتبتهم مع الشريف غالب، فكانوا يكاتبونه ويكاتبهم سرًّا. فكانوا يعلمون بتدبيره، وبها يعتمد عليه، فكان ذلك سبب إقبال مشائخ العربان عليهم، وأرسلوا إلى شيخ مشائخ حرب كافة، فحضر، فأكرموه، فخلعوا عليه وعلى من حضر معه من أكابر العربان، فألبسوهم الفَراوِي السَّمُّور، والشالات الكِشْمِيري، وصبوا عليهم الأموال، وأعطوا شيخ مشائخ حرب مئة ألف ريال فرانسه (سانت تريزا) عينا ففرَّقها على المشائخ، وخصه هو بمفرده من ذلك ثمانية عشر ألف ريال، ثم رتبوا لهم علائق ونقودًا تصرف لهم كل شهر، فعند ذلك ملكوهم الأرض، وصاروا يسعون في خدمتهم، وتقدمهم إلى أن أدخلوهم المدينة المنورة)[1].

---

(١) بلاد ينبع - لحمد الجاسر.

...ثم تزحف نحو الدرعية...

وهكـذا زحفت القوات العثمانيـة إلى المدينة تحتل في طـريقها المدن والقـرى، ودخلت المدينة المنـورة بعد قصف قلاعهـا ومواقعها العسكـرية بالقنـابل قصفًا منظما، وكـانت الحامية السعـودية فيهـا تقـدر بسبعة آلاف جنـدي، وكانـوا في ضعف بسبب مـا تفشى بينهم من الأمـراض، ودخل طـوسون المدينـة بعـد أن استسلم من بقي من الحامية السعودية.

لم يكن أمير الـدرعية بموقـف أحرج من مـوقفه الآن. . إنه يحتـاج إلى جيش قـوي يتمكن من الـوقـوف تجاه التحدي العثماني، وليقلـب به ميـزان القـوى في المنطقة لصـالحه، وبينما كان الأمير سعـود يوجـه ابنه الأمير عبـد الله إلى الحجاز ليتمركـز في وادي مَرِّ الظهـران (وادي فاطمـة) ليقطع الطريق الـرئيس إلى المدينة المنورة، كان الشريف غـالب يراسل – بِسرِّيَّة تامَّةٍ – أحمد طوسـون، ويدعوه إلى مكة، واعدًا إياه بالعون والمساعدة.

وصل الأمير عبـد الله إلى وادي فـاطمـة، وأرسل إلى الحاميـات التي سبق أن تـركهـا بمكـة لـلانضمام إليه، وأوعـز إلى عثمان المضـايفي بتفقـد قـاعـدتهم في الطائف، وفَحْص تحصينها والدفـاع عنها.

وللمرة التاسعـة يصل الأمير سعود إلى مكة للحج، ومعه قـواته، فأدى وابنه عبد الله مناسك الحج. . بينما كان طوسون يستعد للزحف إلى مكة.

أمـا الشريف غالب فإنـه أظهـر للأمير سعـود الـود الكثير، وتبادلا الهدايـا، وجدد العهد للأمير سعود الذي خامره الشك في صدق نيات الشريف.

عـاد الأمير سعود إلى الـدرعيـة، بينما بقي ابنـه عبد الله يجمـع قواتـه في وادي فاطمة، (مَـرّ الظهران).

لم يشر مؤرخ تلك الحوادث الشيخ ابن بشر إلى سبب عدم إقدام سعود بقواته إلى المدينة المنورة لمنازلة أحمد طوسون، كما لم يعلق على ذلك أحد من المؤرخين الذين اطلعنا على كلامهم. ولعل عدم العثور على وثائق ما يعني عدم الإشارة إلى ذلك.

...الاستيلاء على المدينتين المقدستين...!

وبِعَوْدَةِ الأمير سعود إلى الدرعية زحفت القوات التركية قاصدة مكة المكرمة، وكان يرافق طوسون بعض المرتزقة من الأوروبيين؛ للاستفادة من علومهم واختراعاتهم. وقد تولى بعد زحف طوسون إلى مكة أحد الأسكتلنديين الذين معه إمارة المدينة المنورة واسمه (توماس كيت) برهة من الزمن [١].

شعر الأمير عبد الله بانقلاب موقف شريف مكة، الذي أخذ يغير لهجته، وبدأ يتحدث بشكل أفزع الأمير عبد الله [٢].

رأى الأمير عبد الله أنه سيكون بين فَكَّي الرحا، فارتحل بقواته إلى (العُبَيْلاء) في شرق الطائف، واحتل عثمان المضايفي مركزه في الطائف بأمر الأمير عبد الله، إلا أن المضايفي خشي على نفسه وعلى أولاده من الشريف غالب، ورأى أن القوات التركية تملأ السهل والجبل، فترك الطائف ولحق بالأمير عبد الله.

في أثناء ذلك كان طوسون قد دخل مكة دون قتال، إذ إن الشريف سبق أن دعاه وأوعز إلى قواته في (جدَّة) بالوقوف إلى جانبه.

في الوقت الذي احتلت فيه القوات التركية الحجاز كانت الدرعية تعاني أزمات أخرى، أخذ الأمير سعود يذللها حتى قضى عليها.

بدأ طوسون ينظم قواته، وأنفذ مصطفى باشا أحد قادته لاحتلال (تُرَبَةَ) وضرب الحاميات السعودية فيها، إلا أن مصطفى باشا انهزم، واتجه إلى الطائف حيث اشتبك مع قوة على رأسها عثمان المضايفي.

---

(١) تاريخ نجد للريحاني.

(٢) تاريخ نجد - فلبي.

وفي جهة أخرى سار الشريف غالب على رأس قوة نظامية من الجيش العثماني ليطوق المضايفي، فاتسعت الجبهات أمام المضايفي، وانهزم، بعد أن دمرت حامياته، وأخيرًا وقع في أيدي بعض القبائل التي سلمته بدورها إلى الشريف غالب، خصمه الألد.

وفي الوقت الذي انهزم فيه مصطفى باشا من (تُرَبة) وعاد إلى الطائف، سار طوسون بنفسه إلى (تربة) لكنه هزم أيضًا مما شد من أزر الأمير سعود الذي جهز قوة كبيرة، واتجه بها إلى المدينة ـ كان ذلك في شهر ربيع الأول ١٢٢٨هـ ـ ونزل (الحنَاكِيْـة) قرب المدينة، بعد أن طهرها من القوات التركية التي كانت تَتَمركز بها، وأخذ يهدد المدينة بقواته.

بلغ محمد علي باشا انهزام ابنه طوسون في تُربة، فأخذ منه الغضب كل مأخذ؛ فالقضاء على القوات السعودية في الحجاز ونجد هو هدفه، وهو الذي وعد (الباب العالي) بذلك. لذا فإن عليه أن يقوم هو بقيادة الحملة، وتوجه فعلا إلى الحجاز، ومعه العدد والعتاد، ووصل إلى مكة.

ولما يَعْلمـهُ محمد باشا من خداع الشريف غالب فقد أبعده مع أولاده إلى مصر، حيث أمر السلطان بعدئذ بنقلهم إلى (سالونِيْك) للإقامة بها إقامة جبرية.. وتوفي غالب فيها بمرض الطاعون عام ١٣٣١هـ ـ ١٨١٦م وأراد محمد علي باشا أن يعين الشريف راجحًا أميرًا على مكة خلفًا للشريف غالب، إلا أن هذا خشي على نفسه وفر إلى (تُرَبة) مُنْضَمًّا إلى القوات السعودية، كما فرَّ أيضًا الشريف يحيى بن سرور برجاله، وانضم إلى القوات السعودية في (عَسير) حيث كان يقوم بمهمة عسكرية كلفه بها محمد علي باشا، أما الجنود الأتراك الذين معه فقد عادوا إلى مكة، كما فرَّ أيضًا عدد من الأشراف، خشية أن يصيبهم ما أصاب الشريف غالبا من إبعاد، ولجأوا إلى جبال الحجاز.

كانت (تربـة) من المعاقل السعودية الصامدة، فبعـد أن عاد الأمير سعود من مناوراته للمدينة، أخذ يدعم قواته فيها، ويستعد للمجابهة.

وبفرار الشريف راجح، توجه طوسون بقواتـه إلى (تربة) مرة أخرى وحاصرها أربعة أيام، وأمطرها بالقنابل دون جدوى، ثم ارتحل عنها بقواتـه.

هذا ومحمد باشا ما يزال في مكة، والإمدادات من مصر لـم تنقطع وهو يسير القوات في أنحاء البلاد الحجازية.

وفاة الإمام سعود..
وولاية ابنه عبد الله...

وفي شهر جمادى الأولى ١٢٢٩هـ ـ ١٨١٤م ليلة الإثنين الحادي عشر منه، توفي الأمير سعود إثر مرضٍ ألزمه الفراش، توفي الرجل الذي لم يعرف للسلام والهدوء طعماً زهاء نصف قرن من عمره الذي كرسه لخدمة الدعوة، تاركًا لولده عبد الله مهمة الدفاع عن الدولة والقضية، هذه الدولة التي عمل في سبيل امتدادها، ونشر أعلامها أكثر من أي رجل آخر سبقه من أفراد أسرته، وقد كان سعود مسلماً عظيماً، وداعية فذًّا، ومحاربًا قديرًا، وملكًا عزيز الجانب. وما أعظم ما حققه بإصراره، ومقدرته على التنظيم، وخططه الحربية البارعة، وبعد نظره، وتمرسه في السياسة [١].

مات الأمير سعود بينما كان ابنه البكر عبد الله يقوم بغزوات تأديبية لتحْذير العشائر من التعاون مع الأعداء، وكانت جميع الظروف ليست في صالح الأمير عبد الله، ولكنه كان مصمماً على ألَّا يترك زمام المبادرة في يد أعدائه، فبعث بزعيم قَبيلة (عُتَيْبَة) ليتولى القيادة العامة والتشكيلات العسكرية العاملة حول (تربة) النقطة المهمة الرئيسة في الدفاع عن الدولة، وعاد إلى الدرعية، وأخذ يجهز قواته ويعدها، وأعدَّ حملة عسكرية بقيادة أخيه فيصل الذي سار بها إلى (تربة) حيث انضمت إليه جميع القوات والعشائر الموالية من الحجاز وتهامة وغيرها، وأخذ يستعد لخوض المعارك.

في شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٩هـ وصل إلى مكة الحج الشامي والمصري ترافقها قوات كبيرة. هذا إلى جانب وصول الإمدادات إلى محمد علي باشا.

---

(١) تاريخ نجد – فلبي.

كانت بعض القوات التركية في (بِسْل) ـ قرب الطائف ـ وبوصول فيصل إلى (تربة) وانضمام العشائر إليه سار من (تـربة) إلى (بِسْل) لمنازلة الأتراك، ودارت بينهم المعركـة، وفي أثنائهـا أقبل محمد علي بـاشا بقـواته الجرارة، مما دعا الأمير فيصل إلى الانسحاب أمام هذه القوى.

احتل محمد علي بـاشا (تربة) وأمعن في الـزحف إلى (خَمِيْس مُشَيْطٍ) و(بِيْشَة) وبقية قُراها وقرى بـلاد (عَسير) و(رِجال أَلْمَع) وقبائل رُفَيدَة. كما بعث محمد علي باشـا الشريف راجحًا (الـذي انحاز إلى محمـد علي) إلى (رَنْيَـةَ) لتأديـب أهلها، وبينما محمد علي يزحف، والقلاع والحصون تنهـار أمامه، بلغته أنباء خلاف بين حكومته والمماليك، عاد على أثرها إلى مصر بعد أن أمر ابنه طوسون بالزحف على (القَصيم).

صلح لم يتم.. بعد توغل الغزاة في البلاد..

أخذ طوسون يسير إلى نجد ويحتل مدنها وقراها، وقواته وقوات الأمير عبد الله في مناوشات، وكَرٍّ وفَرٍّ في الصحراء، وبدأ عبد الله يضغط على قوات طوسون في المدن والقرى التي احتلها. أخذ الموقف يتقلب من نصر إلى هزيمة لكلا الطرفين، أعقب ذلك تطورات جديدة.. إما أن تكون ناشئة عن وضع طوسون وقواته في صحراء وميادين جديدة عليه وعلى قواته - وهذا أكثر احتمالاً - أو أن الأحداث في مصر وسوء حالة طوسون الصحية، هي التي دعته إلى أن يبعث إلى الأمير برسول يطلب الصلح، وما كان الأمير عبد الله بأقل رغبة من طوسون للصلح.

تم الصلح على الشروط التالية :

أولاً : إنهاء الأعمال الحربية.

ثانيًا : إنهاء التدخل التركي في نَجْد.

على هذه الأسس غادرت القوات التركية (الرَّسّ) - في نَجد إلى المدينة المنورة، ورافق طوسون في عودته ممثلان من قبل الأمير عبد الله يحملان رسالة إلى محمد علي باشا الذي أيَّد الصلح بدوره.

هذان المبعوثان هما عبد العزيز وعبد الله [1]، وقد ذكر الجبرتي في تاريخه أنه قابلهما وتحدث إليهما فوجد منهما أنسًا ولطفًا وطلاقة لسان، واطلاعًا وتضلعًا

---

(١) عبد العزيز هذا الذي بعثه عبد الله إلى مصر هو : عبد العزيز بن حمد بن إبراهيم بن حمد بن عبد الوهاب، من أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو ابن بنته، ووالده الشيخ حمد ممن قرأ على الشيخ في الدرعية وتزوج ابنته، وولد له الشيخ عبد العزيز نحو سنة ١١٩٠هـ، فتلقى العلم عن أخواله أبناء الشيخ وغيرهم من علماء الدرعية. وذكر الجبرتي في تاريخه أن وصول الوفد إلى القاهرة ثامن شوال سنة ١٢٣٠هـ، وقد أثنى مترجموه على عقله وغزارة علمه.

وقد بعثه سعود في سفارة إلى إمام اليمن - انظر تفصيل خبرها في مجلة «العرب» - س ٢٢، ص ٤٣٣/ ٤٤٩ - وقد توفي المترجم بعد الأربعين والمئتين والألف.

ومعــرفــة بــالأخبــار، ولهما من التــواضع وتهذيب الأخــلاق وحسن الأدب في الخطاب، والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية ما يفوق الوصف(١).

وبعد الصلح وانسحاب طوسون، عاد الأمير عبد الله إلى الدرعية، وعدَّ هذه النتيجة نَصْرًا لــه. أما طوسون فقد توفي في مصر بعد فترة قصيرة من الوقت، بعد أن رأى الفشل الذي لحق به في الجزيرة العربية.

مــا كــان الأمير عبد الله بــن سعود ليكتفي بما حققــه من انتصــارات، وتأييــد لحكمه لدى عودتــه إلى الدرعية، فما كانت حركته وحركــة آبائه من قبل إلا حركة لنشر ودعوة وتثبيت عقيدة. وبعد استجمام قصير من معاركه السابقة. وبعد أن انتزع باتفاقه مع أحمد طوسون حق سيادته على نجد، وعدم تدخل الأتراك فيها، أخــذ يقــوم بتأديب بعض القبــائل وأهل المدن والقــرى، ويعيــد تشكيل إدارتها وتعيين الأمراء فيها.

وتتوارد إليــه الأنباء بأن والي مصر ينظــر إلى هذه التحركــات نظــرات تتعارض ووجهة نظــر الأمير عبد الله، الذي يرى أنــه يقوم بهذه التحركــات داخل ولايته، وفي حدود دولته. ويؤكد لمحمــد علي باشا بالتزامه بالاتفاقيــة. ويبعث برسوليه حسن بن مزروع وعبــد الله بن عون بــرسائله وهــداياه، تأكيــدًا لحسن النيات في استمرار الاتفاقية.

إلا أن محمد علي.. ما كانت عودتــه أولاً.. ثم اضطرار ابنه أحمد طوسون إلى توقيع الاتفاقية. إلا عملية هدنة أملتها الظروف. فمقابلتهُ لرسولي الأمير عبد الله كشفت له أنه يــدبر أمرًا، ما أسرع ما نقلاه إلى الأمير عبــد الله، ونقلا انطباعاتهما عن رحلتهما ومقابلتهما لوالي مصر.

---

(١) تاريخ الجبرتي.

..محمد علي باشا..
يواصل إرسال الجيوش لغزو الدرعية

لـم يمض وقت قصير إلا ومحمـد علي باشـا يستنفر الجيوش ويمـده (الباب العالي) في الآستانة بالقوات من الرجـال والعتاد والمال. وتضيق القاهرة بالجيوش التي توافدت إليها.

وفي عـام ١٢٣١هـ سـار إبراهيم بن محمد علي باشـا بهذه الجيوش عبر البحر الأحمر. واتجه رأسًا إلى المدينة المنورة حيث كـان التجمع الأول لقواته. ثم سار بها إلى (الحِناكيَّة).. وألقى عصـاه فيها. أخذ إبراهيم باشـا يستميل القبائل – مرة بالقـوة واستعراضهـا – وكثيرًا بالمال والعطـاء. وقام بعـدة هجمات خاطفـة على بعض القبـائل. مستخدمًـا كل أسـاليب الـدعايـات الحربيـة التي سرعان مـا تناقلتها القبائل ـ عن قواته واستعدادها وكثرتها ـ وهذا ما أراده إبراهيم باشا.

وبعد أن جمع في يـديه خيوط الـزحف، وضمان عدم عرقلتـه من القبائل التي سيكون طريقـه في أراضيها ـ أخذ يجر عُدَدهُ وعتاده.. والـوجهة نجد.. لا بل (الدرعية)..

..الزحف على الدرعية ومحاصرتها

أخذ إبـراهيم باشـا يـزحف بجيشـه اللَّجِب ومدافعـه ـ يطـوي بها صحراء نجـد ـ وهديرها يـدوي فوق كل مدينة وقرية تقف في طـريقه . واستبسلت مدن وقاومت قرى .

اتَّبع إبـراهيم بـاشـا دكّ الأسوار والحصـون ليـلاً ونهارًا بمـدافع لا قبل لأهل المنطقة بها . ولم يعهدوهـا . جعلت البعض منهم يقبل الصلح ، والبعض الآخر ينسحب بكل إيمانـه وقوتـه لينضم إلى الأمير عبد الله الـذي كان يضع العـراقيل أمام زحف إبـراهيم باشا . وينتقل من مدينـة إلى أخرى ينظم صفوفها ، ويـوجه قادتها . إلا أن استمرار وصول الإمدادات من مصر ـ عتادًا ورجالاً ومؤنًا ـ كانت تشد أزر إبراهيم باشا ، وترفع من معنويات جيشه الذي لحقت به خسائر فادحة في الرجـال .

أمام هـذا الطوفـان أخذ الأمير عبد الله مـركزه أخيرًا وبكل قـواته الضـاربة في الدرعية . أليس الهدف هو الدرعية . . ؟! إذ لا بد من الوقوف في وجه الغزاة ـ في الدرعية ذاتها ـ التي أفزعت الآستانة وهزت سمعتها .

... جيش إبراهيم باشا يحاصر الدرعية ...

وفي الثالث من جمادى الأولى عام ١٢٣٣هـ كان إبراهيم باشا على مشارف الدرعية .

كان خط سير إبراهيم باشا إلى الدرعية من الأَحَيْسى (الحيسية) مخترقا وادي حنيفة . فالعُيَين (العُيَيْنة) فالجُبيلة ، واستمر في الوادي حتى نزل قرية (المَلْقَى) وكان فيها نخل للأمير عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود . واستقر في هذه القرية ، وبينها وبين الدرعية مسافة ساعة للراجل ، وضرب خيامه فيها .

بعد استقرار ليس بطويل قام على رأس الفرسان مع بعض المدفعية ، باستكشافٍ سريع حتى قرية (العُلْب) حيث نخل الأمير عبد الله بن سعود . ومنها أخذ يطلق مدافعه على نخيل الدرعية وأسوارها ، ليستكشف أسرارها . أخذ يتطلع إلى هذه البلدة التي استرعت انتباه العالم ، واهتم بها نابليون ، وأقلقت الباب العالي ، والتي استغرق زحفه إليها أكثر من عامين . . ما هي . . ؟ ما أسرارها . ؟ وأخذ يمسح ببصره الواحة التي يحتضنها الوادي العريق . بينما كانت مدفعيته تظللها بالقذائف . . ووجد أن من في الدرعية قد أعد له العدة ، ووجد مقاومة عنيفة جعلته يعود إلى مقر قيادته في (الملقَى) .

وبعد ثلاثة أيام من عودته ـ كان خلالها يدرس المواقع ويعد الخطط ـ رحل بكل قواته ونزل قرية (العُلب) . وزع قواته ما بين وسط الوادي وضفتيه . . وعلى المرتفعات الشرقية من الدرعية ، خلف الوادي حيث كان مقر قيادته .

وفي الطرف الآخر من الدرعية ونخيلها كان الأمير عبد الله بن سعود يعد خططه هو أيضًا ، ويوزع قواته . أخذت قوات على رأسها الأمراء فيصل ، وإبراهيم وفهد ، إخوة الأمير عبد الله مكانها في بطن الوادي ، ومعهم ثلاثة مدافع . وكانت هذه القوة تواجه معسكر إبراهيم باشا نفسه ومدافعه وخيله .

وفي الجانب الشمالي من الوادي في (شعيب المُغَيصبي) كان الأمراء تركي وسعد أبناء سعود . . ويليهما عبد الله بن مزروع ومعه قوة من أبناء بلدته (منفوحة) وغيرهم .

كما كانت هناك قوات أخرى أخذت مواقعها بين قوات إبراهيم باشا وقوات الدرعية الرئيسة . تشكل حرسًا وعينًا للتحركات المضادة .

وقوات أخرى سعودية أخذت مراكز لها في كل مكان ، حول الدرعية وعلى ضفاف الوادي مما يلي الدرعية ، وفي الأودية الأخرى الصغيرة ، التي تشكل روافد لوادي حنيفة الكبير.

أما الأمير عبد الله فقد تمركز بقواته على مشارف الأسوار، ومداخل المدينة ، ومعه المدافع الثقيلة .

أخذ الفريقان في القتال ، بين كرٍّ وفرٍّ، والتحام تارة ، ومناوشة بالقنابل من فوهات المدافع والبنادق تارة أخرى . واستمرت المعارك عشرة أيام . . معارك ضارية استهات فيها الفريقان . . وبالرغم من حدوث معركتين وجهًا لوجه . إلا أن إبراهيم باشا لم يستطع التقدم خطوة واحدة تجاه الدرعية وخطوطها . مما اضطر معه إلى التوقف عن القتال . . وليأخذ مراكز جديدة له . ومن خلال هذه المعارك عرف إبراهيم باشا أن شنَّ حملة قوية على القاعدة الأساسية هو طريقه إلى النصر. فأخذ يمطر المواقع الشمالية السعودية بالقنابل دون انقطاع . وخط الإمدادات بينه وبين القاهرة من جهة وبينه وبين بغداد من جهة أخرى لم ينقطع .

..معركة غبيراء..

ثم كان أول صدع في صفوف الدرعية في معركة (غُبَيْراء) حيث استعمل الباشا خدعتـه في تسرب خيالته ليلاً إلى قلب الـوادي، وخلف الخطوط الأماميـة. وما لاح فجر ذلك اليوم حتى أخذ إبراهيم باشا يُصْلي بنيران مدفعيته المراكز الدفاعية المهمة. ولحظتها . . خرجت من قلب الوادي القوة التي تسربت خلف القوات الأمامية . . كـانت على أثرها معركة استبسل فيها أهل الـدرعية، ولكن وقوعهم بين المدفعيـة من الأمام، وبين الخيـالة من الخلف، دفعتهم إلى الانسحـاب من بين فكي الـرحـا. وقـد قتل من جنـود إبـراهيم بـاشـا الكثير. كما قتل من أهل الدرعية رجال صبروا وصابروا، وكان ممن قتل في هذه المعارك الأمير فهد بن تركي ابن عبـد الله بن محمـد بن سعـود ومحمـد بن حسن المشـاري، وحسين الهزَّاني. كانت معركـة ألقى فيها إبراهيم باشـا بكل ثقله، . تحولت فيها الأرض والجو إلى لهب ودخان، وأصبحت أرض المعارك مزارع لجثث القتلى من الفريقين.

أثرت هذه المعارك والحوادث في بعض النفـوس، مما دعا البعض إلى أن يلجأ إلى إبراهيم باشـا ـ كما يحدثنا الشيخ ابن بشر ـ وأن يطلعـوه على مواطن الضعف في صفـوف أهل الـدرعية وحـامياتها وخطوط الـدفـاع فيهـا. وعلى ضوء هـذه المعلومـات أعاد إبراهيم بـاشا تنسيق خططه. فعهـد إلى علي ازن ـ أحد قـادته ـ بعد أن أمـده بقوات من عدد من المراكـز أن يتخذ مـراكزه في الجهة الجنـوبية من الدرعية، وإلى آخرين الجهة الشمالية. أمـا هو فزحف من قلب الوادي بالقوات الضاربة، وأخذ يقصف بمدافعـه الأبراج على ضفتي الوادي. بينما كانت المشاة والفرسان يـزحفون بحمايتها. وشدد في هجومه بـالمدافع على موقع الأمير عبد الله ابن عبد العزيز، الذي تراجع تحت قوة هذا الضغط إلى خطوط أخرى. أما علي ازن فقد زحف على الجهـة الجنوبية حيث مواقع الأمير عمـر بن سعود. والتحم

جيش علي ازن بقوات الأمير عمر وجهًا لوجـه، بالبنادق والسلاح الأبيض، وفي غمرة التحام الجيش ظهرت قوات أخرى خلف الأمير عمر بن سعود مما اضطره إلى الانسحاب. هذا و إبـراهيم باشا يوالي سيره في بطـن الوادي تجاه قوات الأمير فيصل، الـذي أخذ يتجـول بين قواتـه يتفقدهـا، وفي أثناء تجوالـه هذا أصـابته رصاصة طائشة لـم تمهله.

..التفاف العدو حول الدرعية..!

وبدأت قوات إبراهيم باشا بعمليات التفاف شامل حول الدرعية .

وبالرغم من أن إبراهيم باشـا أصيب بخسارة فادحة إثر احتراق مستودعـات الذخيرة والمؤن . فقد استطاع أن يتجمع ويستـولي على كل سلاح وذخيرة ومؤونة في مدن نجد وقـراها ، التي سبق له أن احتلها . كما أن الأتـراك في العراق وغيرها أمدوه بصورة عاجلة بما يعوض خسارته ، وأخذوا بتنظيم القوافل لتمويله بصورة متتالية .

ومع كل هذا الدعم المستمر لإبراهيم باشا فقد استبسل قادة الدرعية وأهلها استبسالاً منقطع النظير، غير أن الحصار الذي أحكمه إبراهيم باشا على الدرعية جعل الأحـداث تسير سيرًا معاكسًـا للأمير عبد الله بـن سعود ، فـالمؤن نفدت ، والذخيرة التهمتهـا المعارك ، والقبائل أخـذت تغادر الدرعيـة ، والحصار يضيِّق الخناق ، ويلتف حول الدرعية ، وحاول الأمير عبد الله لآخر مرة أن يسد الثغرات في صفـوفـه مـا أمكن ، ولجأ إلى قلب المدينـة والتف حولـه رجـال مخلصـون . . ويستشيط إبراهيم باشا غيظًا من هذه المقاومة ، فيركز كل فوهات مدافعه لتمطر الحصون بوابل من القنابل لا ينقطـع ليل نهار. وتسقط الحصون ، ويقف الرجال على أطـلالها يـدافعـون شبرًا شبرًا . . ويلتفت الأمير عبـد الله إلى رجـالـه وأهل بلده . . وتعز عليه أرواح العزل منهم خـاصة ، ويقرر الموافقة على الصلح . وقد رأى سقوط نحـو من واحد وعشرين أميرًا ، سقطـوا قتلى دون الحمى . إلى جانب المئات من أبناء جلـدته وعشيرته . . إلى جانب الضنك الذي عانتـه الدرعية من الحصار. قرر الصلح الذي تم بشرط خروجه إلى إبـراهيم باشا والذي سيبعث به إلى مصر ـ على أن لا يسيء إليه .

استسلام دون انهزام ...!

خرج الأمير عبد الله بعد ستة أشهر من القتال الضاري ضد الباب العالي، وبكل مواردها الضخمة الهائلة، و إمداداتها المتتالية . . خرج الأمير عبد الله . . وانتصر إبراهيم باشا بعد أن قدم من الضحايا تحت أسوار الدرعية نحوًا من عشرة آلاف مقاتل . . ومئات، بل آلاف من أطنان الذخيرة .

وها هو الأمير عبد الله يتحدث إلى إبراهيم باشا بعد مقابلته له حديث الرجل المؤمن بعقيدته الشجاع حتى في الهزيمة :

(إنك عظيم يا إبراهيم باشا . . ووالدك أعظم منك . . ثم إن السلطان محمود أعظم منه . . إلا أن الله أعظم منكم جميعًا . .) [1] .

بهذه الكلمات التي ما زال صداها يتردد حتى اليوم بين أطلال الدرعية القديمة . . المدينة التي واكبت الأمجاد التي حققتها دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب وناصرتها أسرة آل سعود .

وما إن تم استسلام الدرعية لإبراهيم باشا، حتى نكَّل بأعيانها أشد تنكيل . . وبالعلماء منهم خاصة ، حيث قتل بعضهم رميًا بالرصاص والبعض الآخر وضع في فوهات المدافع، وأطلقت حيث تناثرت أشلاؤهم . وكان نصيب الشيخ أحمد بن رشيد الحنبلي قاضي الدرعية يومها الضرب والتعذيب، والتعزير والإهانة . . وأخيرًا قلعت أسنانه . وقتل رميًا بالرصاص الشيخ سليمان ابن عبد الله آل الشيخ ـ حفيد إمام الدعوة .

---

(١) تأسيس إمبراطورية محمد علي – من المخطوطات الفرنسية في إدوارد ريو ١٩٢٣م .

وتصل الأوامر إلى إبراهيم باشا من أبيه محمد علي بتدمير الدرعية تدميرًا تامًا . فأمر إبـراهيم باشا أهل الـدرعية بإخلائهـا ، وأخذ يصب عليها مـدافعه ، حتى حـولها إلى خرائب وأطـلال مـا تزال حتى اليـوم ، شـاهد عيـان لصراع بين حق وباطل . . لكفاح مرير في سبيل عقيدة ومبدأ .

وجَهَّز إبراهيم بـاشا رشوان آغا ، وعلي دويدار ، بقـوة ترافق الأمير عبد الله إلى مصر ، مع بعض أسرتـه وأسرة الإمام محمـد بن عبد الوهاب . ومنهـا إلى الآستانة التي تنفست الصعداء ، واطمأنت إلى مكـانتها بعد أن رأت (سيد العـرب) يدار به في شوارعهـا حيث انتهى إلى ميدان السلطان بايـزيد ، حيث قتل ـ رحمه الله ـ بأمر من السلطان محمود خـان .

... وانتصر العدو فسقطت الدرعية ..!

بعد سقوط الدرعية وبعث أميرها إلى مصر. نقل إبراهيم باشا مقر قيادته إلى داخل الدرعية، واستقر في (العُويسيّة) نخل الأمير تركي بن سعود، ووزع بقية الجيش في أنحاء متفرقة من الدرعية والطرق المؤدية إليها.

أقام في مقر قيادته، وأخذ يبعث إلى قواته المنتشرة في أنحاء نجد يأمرها بهدم أسوار وحصون المدن والقرى. وأقام في الدرعية بعد التسليم مدة تسعة أشهر، كان خلالها يعمل على تصفية الحركة الإصلاحية، وأنصارها وأنصار آل سعود.

وبعد أن تأكد له ما أراد، كرَّ راجعًا إلى مصر مصطحبًا معه جميع من بقي من آل سعود، وأبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبنائهم وأسرهم من نساء وأطفال، إلاَّ من استطاع من هؤلاء اللجوء إلى جهات نائية. ومن مشاهير من استطاع الاختفاء، الأمير تركي بن عبد الله، وأخوه زيد، والشيخ القاضي علي ابن حسينِ بن الإمام محمد بن عبد الوهاب، الذي لجأ إلى قطر.

وقد ذكر الكابتن البريطاني ج. ف. سادير الذي مرَّ بالدرعية بعد تدميرها مباشرة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م، وكان يقوم برحلة عبر جزيرة العرب ـ أن معالمها قد أزيلت تمامًا، وأنه لا أثر للحياة فيها، وقال: إنه لم يقابل رجلاً واحدًا أثناء تجواله بين الأطلال.

اتخذ إبراهيم باشا طريقه في العودة إلى القصيم فالمدينة المنورة، ومنها إلى مصر عبر البحر الأحمر.

في غمرة من الفوضى والاضطراب .. أمير معمري

وقد عملت السياسة عملها في إشاعة الفوضى والاضطراب في نجد بتدبير من محمد علي باشا ، الذي كانت تهمه هذه باعتبارها الورقة التي لا تترك مجالاً لعودة الدعوة والمناضلين عنها من آل سعود .

وما إن وصلت قوات إبراهيم باشا إلى المدينة متجهة إلى مصر، حتى خرج من (العيينة) محمد بن مشاري بن معمر إلى الدرعية تحدوه الآمال الكبار في أن يحل محل آل سعود . متذرعًا بأنهم أخواله . ووصل إليها فعلاً ، وأخذ بتجميع أكثر عدد ممكن من أهلها ، الذين تفرقوا في البلاد معلنًا لهم أنه سيعيد بناء الدرعية ويشيدها ، وأنه سيوالي نصرته للدعوة وبثها . وبهذا انضم إليه أهل الدرعية وعادوا إليها و إلى دورهم ومزارعهم .

لكن الأمور تأزمت في أول عهده . فالفوضى التي حلَّت في نجد كانت سببًا في توقف قوافل التجارة والانتقال من بلد إلى بلد . مما جعل الأسعار في ارتفاع شديد في الدرعية التي قضى إبراهيم باشا على نخيلها ومزارعها ، وشدد الضيق المعيشي قبضته على الدرعية . وكانت مواجهة صعبة بين محمد بن مشاري وبين الوضع المتدهور للحالة المعيشية . فأخذ يكاتب أهل المحمل وسدير والوشم ، يزيِّن لهم جلب الأطعمة وخصوصًا إلى الدرعية . وما قد يحصلون عليه من مكاسب تنمي تجارتهم ، وساد الاطمئنان ، مما جعل أهل هذه المدن يحملون القوافل إلى الدرعية . ثم توالت بعد ذلك القوافل من جميع القرى المحيطة بالدرعية ، تفد إليها مما ساعد على تحسين أحوالها . وعادت الأسعار إلى سابق عهدها .

في أثناء ذلك وصل الأمير تركي بن عبد الله وأخوه زيد، ولما رأيا من محمد بن مشاري أنه يريد السير على نهج آل سعود، لم يتخليا عنه، بل ساعداه ووقفا إلى جانبه، وبخاصة الأمير تركي الذي تأصلت في نفسه روح الدفاع عن الدرعية. وكان مستعدًّا أن لا يتورع عن خدمة محمد بن مشاري في سبيل مصلحة بلده مهما كانت تضحياته الأدبية والمعنوية والمادية، مما شجع ابن معمر وشدَّ في عضده. كما كان سبب وقوف هذين الأميرين إلى جانبه مبايعة مدن العارض وسدير والوشم له.

لكن الأحداث تأبى إلا أن تسير في الطريق التي أرادها الله.

ففي العاشر من شهر جمادى الآخرة ١٢٣٥هـ، وصل إلى الوشم الأمير مشاري بن سعود - والذي تمكن من الفرار من حرّاسه وهو في طريق المنفى - حيث اجتمع إليه عدد كبير من الأنصار والرجال، ثم سار إلى الدرعية يحمل معه قوافل من الأرز زالأطعمة، حيث كان قد بلغه ما تعانيه من ضنك، وبوصوله إلى الدرعية نزل في بيت أحد إخوته.

بوصول الأمير مشاري بن سعود، تزعزع مركز ابن معمر - فمشاري يُعَدُّ الوريث الشرعي للأسرة الحاكمة - ورأى ابن معمر أن الأمر سيخرج من أمره لو بادره بالعداء، لذا أسرع بمبايعة الأمير مشاري بن سعود كأمير للدرعية وما يتبعها، وكإمام بعد أسلافه.

توافدت الوفود من الأقاليم تبايع الأمير مشاري وتهنئه. وثبت مركزه بانضمام الأمراء تركي بن عبد الله وزيد بن عبد الله وعمه عمر بن عبد العزيز وأولاده ومساندتهم له. وبتولي الأمير مشاري الأمر قام ببعض الغزوات السريعة للمناطق التي تأخرت عن مبايعته، ومن ثم عاد إلى الدرعية في العام نفسه.

هذا ومحمد بن مشاري بن معمر يفكر فيما آل إليه الأمر، ولعله رأى أنه أحق من مشاري في الحكم - أو لعلها شهوة الحكم - ولكنه لا يستطيع المجاهرة بذلك

وهـو في الدرعيـة . كما أنـه يعلم أن أهل الدرعيـة لن يقبلـوا بذلك ، فـرحل إلى سدوس لـلاستشفاء ـــ متصنعًا المرض ـــ وبوصولـه راسل بعض من يثق بهم من رؤساء القـرى والقبائل ليناصروه ، فـاستجاب لـه البعض . ولما تيسرت لـه القوة التي أمَّل في صمودها ، وأن بـاستطاعتها استرجاع الإمارة لـه . سـار إلى الدرعية بحذرٍ وكتمانٍ شديدين ، بينما كان الأمير مشـاري بن سعود منهمكًا في إعادة بناء الدرعية و إعادة الحياة الطبيعية إليها .

استطاع ابن معمـر الدخول إلى الدرعيـة سرًّا ـ ولعل له فيهـا بعض الأعوان ـ حيث تمكن من الـدخول على الأمير مشاري في قصره، ومعـه نخبة من رجـاله ، فـاعتقل مشـاري وسجنـه . ولما كـانت (الدرعيـة) مـا تـزال تعـاني من الحروب المتكـررة ، وجراحهـا التي لـم تبل بعـد الكـارثة ، فلم يكن بـوسعها إلا إعـلان التأييد لابن معمر.

ترك ابن معمر ابنه مشاري في الدرعيـة . وتوجه إلى الرياض حيث يقيم الأمير تركي بن عبد الله . ولما كانت القوة في يـد ابن معمر، فإن الأمير تركي لـم يجد بدًّا من الانسحاب من الرياض حيث اتجه إلى الحائر، فضَرمَى .

دخل ابن معمر الرياض دون مقـاومة ، وولّى ابنه مشاري أميرًا عليها ، حيث رجع هو إلى القاعـدة (الدرعية) حاكمًا مـدعمًا من الأتراك هذه المرة ، حيث بعث إلى عبوش آغا القـــائد التركي ـ والذي وصل إلى القصيم منذ فترة وجيـزة ـ يعلمه بأنه يتولى الأمـر من (الباب العالي) . وتأكيدًا لذلك فإنـه أخبره بأنه أسر مشارِي ابن سعود ليسلمه لهم .

تركي بن عبد الله يبدأ تحركاته

أمـا الأمير تـركي بن عبـد الله فإنه بـوصـولـه إلى ضَرمَى، أخـذ يؤلف حـولـه المخلصين ويدعـوهم إلى مناصرتـه. فـاجتمع له من الـرجال والعتـاد ما يـؤهله لخوض معركة حـاسمة مع ابن معمر. لكن هذا الأخير علم بما يدبـره له تركي، فبعث إليه بقـوة على رأسها ابنـه مشاري. ويقتضي الموقف من تـركي أن لا يجابه هذه القوة فيحتمي في أحد الحصون ويترك مشاري يدخل البلدة. وما أن يمضي الهزيع الأول من الليل حتى يخرج تـركي من القصر متسلـلاً ومعـه أحد رجـالـه الأشداء، ويقتحم بيتًا يضم الكثير من رجال ابن معمر الذين فروا من أمامه بعد أن قتل منهم من قتل. إلا أنهم عـادوا إلى الأمير تركـي مرة أخـرى لينضموا إليـه وليقفـوا إلى جانبـه. وهكذا فـوجئ مشاري بن معمـر بأنه وحـده وقد تخلى عنـه رجاله فكر هاربًا ـ على حصانه ـ إلى الرياض.

وفي شهر ربيع الأول من العام نفسه ـ ١٢٣٥هـ ـ دخل الأمير تركي الدرعية، وحاول ابن معمـر المقاومـة ولكن أهل الدرعية لـم يقفوا معه بـاعتباره غـاصبًا للحكم. وهكـذا ألقى الأمير تـركي القبض على ابـن معمـر وابنـه مشـاري وسجنهما. ومن المفـارقات العجيبـة أن ابن معمـر كان معـدًّا هـذا اليوم وليمـة فاخرة لوفود من أهل سدير وأهل المحمل، إلا أنها كانت من نصيب الأمير تركي ورجاله.

العدو الخارجي .. يعد الكرة

طلب الأمير تركي من ابن معمر أن يأمر بفك أسر الأمير مشاري بن سعود، الذي سبق أن أسره وبعث به إلى عشيرته في سدوس، مقابل فك أسره وأسر ابنه. ولكن عشيرة ابن معمر رفضت فك أسر مشاري بالرغم من كتابته لهم بذلك، ويعلمهم أن حياته وحياة ابنه مرهونة بفك أسر مشاري. فوصول قوات تركية جديدة على رأسها خليل آغا ومعه قبائل مطير، جعلتهم يقدمون مشاري ابن سعود إلى خليل آغا خوفًا مما قد يصيبهم من عقاب. ولما علم الأمير تركي بذلك أمر بضرب عنقي ابن معمر وابنه عقابًا لهما.

لم تقف القوات التركية حيث هي، بل زحفت إلى الرياض وهاجمتها، لكنها انهزمت أمام صمود الأمير تركي ورجاله، ورحلت إلى ثرمدا بانتظار تعليمات جديدة، هذا إلى جانب أن عَبوش آغا ما زال في عنيزة كقاعدة تركية في القصيم. ولما كانت مهمة خليل آغا حركية فقد بعث بأسيره مشاري بن سعود إلى عبوش آغا، حيث توفي رحمه الله في الأسر.

بالرغم من وجود قواعد عسكرية تركية في نجد، وبخاصة القوات المتمركزة في القصيم وسدير والمحمل والوشم ـ هذه القوات التي أقيمت لتبعث الرعب والفزع والسلب والنهب واضطهاد المواطنين، مما اضطر الكثير منهم إلى الفرار في الصحراء، وعوقبوا على فرارهم بتدمير ممتلكاتهم وسلب أموالهم. . حتى النساء والأطفال لم يسلموا من الاعتداء.

كل هذا لم يُلن قناة الدرعية. وأحس (الباب العالي) أن الأمر يتطلب أكثر من هذا تجاه عناد الدرعية البطولي. كما أنهم يعتقدون أن كل مقاومة في نجد هي أساسًا من وحي الدرعية وبفعلها.

يدلنا على هذا وصول حسين بك أبـو ظهر إلى القصيم في عام ١٢٣٦هـ[1]، ومن هنا أرسل عبوش آغا باشا لمهاجمة الرياض واحتلالها، يجر معه جيشًا خليطًا من الأتراك والعربان، مزودين بالمدافع والعتـاد. أمام هذه القوات الزاحفة.. لم يكن أمـام الأمير تركي إلا إخـلاء الريـاض - فهـو بعد لم تتح لـه الأيام أن يجنـد ويجمع صفوفه لتلاقي مثل هذه القوات. وخرج من الرياض سرًّا - ثم ظهر فيما بعد أنـه التجأ إلى الحوطة. ودخلت القـوات التركية بقيادة عبـوش آغا الـرياض دون مقاومة. ومن ثم وصل إليها حسين بك وصادر أموال أهل الرياض وسجن العديد منهم. كما أسر الأمير عمر بن عبد العزيز وأولاده وبعث بهم إلى مصر.

---

(١) ١٢٣٧هـ (ابن عيسى).

... ومرة أخرى تدمر الدرعية ...!

وحيث إن (عقدة) الأتراك هي (الدرعية) فقد أمر حسين بك بإخلاء الدرعية من أهلها تمامًا، وهم الذين عادوا إليها في إبان عودة ابن معمر والأمير مشاري ابن سعود وأسرهم جميعًا. وأدار إلى الدرعية فوهات المدافع وصب عليها كل نقمته حيث دمرها تدميرًا جذريًا هذه المرة، وقطع جميع نخيلها وأشعل النار فيها.

عاد حسين بك إلى ثرمدا، وأقام فيها معسكر اعتقال، زج به جميع أسراه من أهل الدرعية رجالاً ونساء وأطفالاً. وأعلن في ثرمدا بأنه سمح لسكان الدرعية بالسكنى في المدن والأقاليم التي يرغبونها، وأنه سيكتب لكل منهم رسالة لأمير البلد التي سيذهب إليها ليكون عونًا له ومساعدًا في محل سكناه الجديد. صدَّق البعض هذا، وأتوا إلى ثرمدا وكانوا قلة وأبدى لهم حسين بك كثيرًا من الإكرام، مستهدفًا من ذلك أن يجتمع إليه أكبر عدد ممكن من أهل الدرعية ـ وما كان هذا الكرم إلاَّ فخًّا محكمًا ـ ولما نفد صبره أخرج الرجال من المعتقل و. . . (دهمتهم خيل حسين بك بحوافرها وقضوا عليهم جميعًا بالسلاح الأبيض والرصاص وسنابك الخيل، ولم ينج منهم أحد. وكان عددهم (٢٣٠) رجلاً رحمهم الله جميعًا).

تتابعت السنون والأحداث على نجد. . فتن . . حروب . . قلاقل . . وضربت الفوضى فيها أطنابها.

هذا والدرعية مجرد اسم نقش على كل قلب . . وأخذت مكانها في صفحات التاريخ . . فلم تعد كما كانت، بل أصبحت أطلالا وخرائب بعد أن دمرت مرتين.

ويعود تركي لينشئ حكماً قاعدته الرياض

وبعودة الأمير تركي بن عبـد الله إلى الرياض واحتلاله لها عـام ١٢٤٠هـ ومـا بعده أصبحت الرياض عاصمة لآل سعود.

بقيت الدرعية طيلة حكم الأمير تـركي بن عبد الله الذي دام عشر سنوات من تاريخ دخوله عرقة عام ١٢٥٠هـ قرب الريـاض ثم دخوله إليها، بقيت دون أن يكون لها شـأن يذكر، بـل إنه لا يوجـد فيها مـن السكان إلا نفر قليـل يعد على الأصابع. وخلال تـولي الأمير فيصل بن تركي الحكم بعد والـده الذي قتل غدرًا عام ١٢٤٩هـ وهو في طريقه إلى المسجـد. أخذت الدرعية تنتعش شيئًا فشيئًا، وبدأ يعود إليها بعض من هجرها من أهلها، بعد أن بقيت خالية من السكان أو تكـاد مدة تـزيد على ستـة عشر عامًـا. بينما نرى أن المقيم البريطـاني في الخليج العربي الكولونيل (بيلي) يذكر أنه مر بـالدرعية عـام ١٢٨١هـ وهو في طريقه إلى الرياض.. وأنه رآها خاوية على عروشها. ولعله كان يعني بالدرعية ما رأى من الأطلال والخرائب دون المزارع وما بينها من الدور.

وتتابعت الأحداث يجر بعضها بعضًا. ولما كنـا هنا نكتب عن الدرعية فقط. فإننا نضع أمام القارئ قائمة بأسماء الذين تـولوا الأمر في نجد وخصوصًا الدرعية والريـاض بعد وفـاة الأمير تركي بن عبـد الله.. معتمدين في ذلك على مـا كتبه مؤرخا نجد ابن بشر وابن عيسى:

مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود	١٢٤٩هـ ـ ١٢٥٠هـ
فيصل بن تركي بن عبد الله	١٢٥٠هـ ـ ١٢٥٣هـ
خالد سعود	١٢٥٣هـ ـ ١٢٥٧هـ
عبد الله بن ثنيان بن سعود	١٢٥٧هـ ـ ١٢٥٩هـ

فيصل بن تركي (للمرة الثانية)		١٢٥٩هـ ـ ١٢٨٢هـ
عبد الله بن فيصل		١٢٨٢هـ ـ ١٢٨٨هـ
سعود بن فيصل	(سنة واحدة)	١٢٨٨هـ ـ ١٢٨٨هـ
عبد الله بن فيصل	(للمرة الثانية)	١٢٨٨هـ ـ ١٢٩٠هـ
سعود بن فيصل	(للمرة الثانية) [١]	١٢٩٠هـ ـ ١٢٩١هـ
عبد الله بن فيصل	(للمرة الثالثة بعد وفاة سعود)	١٢٩١هـ ـ ١٣٠٥هـ

أبناء الأمير سعود بن فيصل محمد وسعد وعبد الله (فترة من عام ١٣٠٥هـ)

محمد بن عبد الله بن رشيد	١٣٠٥هـ ـ ١٣٠٧هـ
الإمام عبد الرحمن الفيصل	١٣٠٧هـ ـ ١٣٠٨هـ

ثم تلا ذلك فترة استيلاء آل رشيد على نجد. وهي نحو عشر سنوات.

(١) توفي سعود بن فيصل في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ.

إطلال فجر جديد بقيام الملك عبد العزيز للعمل على توحيد البلاد

وفي إطلالة اليوم الخامس من شهر شوال ١٣١٩ هـ أصبحت الرياض تحت حكم الإمام الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . وكانت فاتحة عهد الازدهار في أنحاء نجد قاطبة ، حتى تم توحيد هذه المملكة الفتية . وليس هذا مقام الحديث عن ذلك . إلا أننا نريد أن نصل إلى أن الدرعية أخذت ذكريات كفاحها ونضالها تملأ الآفاق ورأت الأمجاد التي بدأ بوضع أسسها الأولى الأمير محمد بن سعود بن مقرن . . كما رأت ارتفاع علم الدعوة الخيرة التي قام بها شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب . . والتي كانت تناهضها بضراوة وعنف الأهواء والمصالح والمطامع السياسية ، بالرغم من أن كثيرًا ممن ناهضوا كانوا يدركون في قرارة أنفسهم صدقها ودقة أمانتها ـ حتى من غير المسلمين ـ وقد أشرنا إلى ذلك في فصول سابقة .

الرياض قاعدة للدولة

في عـام ١٢٣٨هـ أصبحت الـريـاض قــاعـدة للـدولـة السعوديـة، إلا أن الاستقرار التام لاتخاذها قاعدة بعد الـدرعية كان في عام ١٢٤٠هـ. وذلك طيلة مدة العهـد الثاني لحكـم الأسـرة السعوديـة. وفي الفترة مـا بين عـام ١٢٣٨هـ و ١٢٤٩هـ لـم يكن للدرعيـة شـأن يذكـر، ولكن الحياة عادت إليهـا، وعـاد أهلها. وأخذت زراعتها تنمـو واتجه أهلها للزراعة اتجاهًا يكاد يكـون مركزا على غـرس النخل فقط. ولما لم يكن لـديـنـا من المراجع المسجلـة مـا يمكن الاعتماد عليـه، فقـد تحدث الرواة أن الـدرعيـة بعـد تولي الإمـام تـركي عليهـا، ومن ثم استيلائه على الرياض لم يكن فيها أمير من قبله.

وفي آخر عهـد الإمام فيصل بن تركي تـولى إمارتها إبراهيم الطـويل، ثم تلاه الرواف، ثم تولى إمارتها في فترة الفتن عبد الرحمن بن مسيند.

أما في عهد الملك عبـد العزيز فقد ولي إمارتها محمد بن عبـد الرحمن المُسيند، ثم محمد بن ناصر بن سالم.

وفي عهد الملك سعـود ولي إمارتها عبد الـرحمن بن محمد بن مبـارك ومحمد بن ناصر بن سـالم مرة أخرى، وعبـد العزيز بن عـروج. أما أميرها حين تحريـر هذا البحث (١٣٨٧هـ) فهو الشيخ محمد بن عبد الرحمن الباهلي [١].

---

(١) ولا يزال ـ متعه الله بالصحة والعافية، وختم بـه بخاتمة السعادة ـ هو الأمير هذا العام ١٤١٥هـ. أما مدينة الـدرعية اليوم فقد تغيرت تغيرًا عظيماً من الناحية العمـرانية، بحيث أوشك أن يتصل بها عمران مدينة الـرياض، وقد أنشئ فيها الكثير من المرافق الحيوية واتسع عمـرانها، وكثر سكانها بما لا تتسع لوصفه الصفحات، وإنما يحتاج إلى مؤلف خاص.

الدرعية عام ١٣٨٧هـ

يبلغ سكان الدرعية في ذلك الوقت ٤٠٠٠ نسمة تقريبًا موزعين حسب النسب التالية ٩, ٥٠٪ ذكور و ١, ٤٩٪ إناث[1].

وارتبطت الدرعية بالرياض بطرق معبدة، ودخلها الماء والتيار الكهربائي. وارتبطت إدارتها بالإدارات الرئيسة في الرياض العاصمة. وتتكون المؤسسات الرسمية في الدرعية من :

١ ـ الإمارة.

٢ ـ إدارة الشرطة.

٣ ـ المحكمة الشرعية.

٤ ـ مراكز التدريب والتنمية الاجتماعية.

٥ ـ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦ ـ البرق والبريد والهاتف.

٧ ـ مدرستان للبنين – ابتدائية ومتوسطة.

٨ ـ مدرسة ابتدائية للبنات.

كما تتكون مساكنها حسب الإحصاء الأخير من ٦٣٦ منزلاً موزعة على الأحياء التالية :

١ ـ حي الطُّريف. وهو مقر سكنى آل سعود الأول.

٢ ـ حي البُجَيْري. وهو مقر سكنى آل الشيخ[2].

---

(١) تقرير مركز التنمية بالدرعية.

(٢) ولعل البجيري هذا نسبة إلى بجير الرميلي المتقدم ذكره فيما نقل من كتاب «إمتاع السامر»، وقد جاء في هذا الكتاب ص ٩٢ ما نصه في شرح قول علي بن الحسين الحفظي (١٢١٧/ ١٢٧٥هـ) : =

٣ ـ حي سمحان .

٤ ـ حي الطوالع .

٥ ـ حي المريح .

٦ ـ حي الظهرة .

٧ ـ حي الظويهرة (الحوطة سابقًا) .

٨ ـ حي السُّريحة .

٩ ـ حي الروقية .

١٠ ـ مَلوِي (النقيب سابقًا) .

وأخيرًا (غصيبة) وهي لم تسكن بعد حروب إبراهيم باشا حتى اليوم .

ويلفت نظرك فيها اليوم مركز التدريب وتنمية المجتمع الذي تم افتتاحه في منتصف عام ١٣٨٠هـ، وكانت تشرف عليه وزارات المعارف والصحة والزراعة . وبإحداث وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في شهر ذي الحجة من عام ١٣٨١هـ وبحكم اختصاصها أصبح لها حق الإشراف على هذا المركز بالاشتراك مع وزارات المعارف والصحة والزراعة . وبدأت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية بتطوير المركز وتدعيمه ، واستقدام خبراء للتنمية وإعداد برامج فنية ، ودورات تدريبية فيه . ويعمل هذا المركز في المجالات الآتية :

١ ـ المجال الاجتماعي .

٢ ـ المجال الصحي .

٣ ـ المجال التعليمي .

= فَسَلِّم على الأَحْبَابِ تَسْلِيْمَ مُوْجَدٍ ولاَ تَنْسَ جِيْرَانَ الْبُجَيْرِي بِالْحُدِ

من قصيدته المشهورة .

البجير : حيٌّ من أحياء الدرعية فيه مقبرة آل الشيخ وآل سعود . انتهى . والمعروف أنه المحلة التي كان يسكنها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

٤ ـ المجال الزراعي .

٥ ـ التدريب .

وفي مجال التدريب يتلقى المتدربون فيه :

١ ـ علم الاجتماع .

٢ ـ الإصلاح الريفي .

٣ ـ تنمية المجتمع .

٤ ـ التعاون .

٥ ـ الصحة العامة .

٦ ـ الإرشاد الزراعي .

٧ ـ العلاقات الإنسانية .

٨ ـ تعليم الكبار .

٩ ـ الخدمة الاجتماعية .

١٠ ـ دراسة القرى .

١١ ـ البحث الاجتماعي .

١٢ ـ دراسة حالات الضمان الاجتماعي .

ولا يكتفي هذا المركز بخدمة الدرعية ، بل يتعداها إلى القرى التابعة لها مثل العودة والعِلْب وعِرْقة ، كما يشرف على المؤسسات الاجتماعية التالية :

١ ـ الجمعيات التعاونية .

٢ ـ النوادي الرياضية .

٣ ـ دور الحضانة .

٤ ـ مستوصف صحي .

٥ ـ دار الفتاة .

ومن الناحية الزراعية أخذت الدرعية في السنوات الأخيرة بالاهتمام بشتى أنواع الـزراعــة ، وهي تنتج إلى جــانب محصـولها الــرئيس من النخيل والخضراوات والفواكه والمحاصيل الحقلية كـالقمح والشعير والفول والبصل والذرة والدخن . كما يعتني المزارع فيها بتربية الحيوانات والدواجن .

وجملـة المسـاحـات المزروعـة في الدرعيـة بلغت ٢٢٧٣٣ دونم ، منهـا ٥٤٢٤ دونم مزروعة بـالنخل ، و ١٥٣٨ دونـم مزروعة ببرسيم . أما باقي المسـاحة فتزرع فيها المحاصيل الحقلية والصيفية والخضر والفـواكه التي بلغت في آخر إحصائية لوزارة الزراعة كما يلي :

١١٢,٥٩٠ نخلة .

٥٠٣٤٧ شجرة عنب .

٢٣١٢٣ شجرة رمان .

٤٤٨١ شجرة تفاح .

١٤١٥٦ شجرة خوخ .

٣١٢٧ شجرة مشمش .

٢٨٤٢ شجرة تين .

٢٤٠٩٣ شجرة برتقال .

٣٢٨٠ شجرة يوسفي .

٣٠٩٠ شجرة ليمون .

١,١٣٧,٨١٠ أشجار خشبية [١] .

---

(١) إحصائية وزارة الزراعـة عـام ١٣٨٧هـ.

ويلاحظ أن كثيرًا من أشجار الفاكهة لم تكن تنال حظًّا من عناية المزارع في السابق، إلا أن ما تبذله وزارة الزراعة من تسهيل للحصول على الشتلات المختلفة وتوزيعها والإشراف الفني جعلت المزارع يقبل إقبالاً شديدًا على زراعة مختلف الفواكه والخضراوات ويبدي اهتمامًا ملحوظًا بها.

وموارد المياه في الدرعية من الآبار الارتوازية والعادية التي تبلغ ٣٥٧ موردًا (بئرًا).

والقادم إلى الدرعية اليوم تشرئب عنقه إلى الأطلال الشامخة في الدرعية القديمة، الأطلال التي تتحدث عن الأمجاد، وترسم لوحة رائعة من التاريخ العظيم، والأحداث الجسام التي مرت بها، وصبرت وصابرت في سبيل عقيدتها ومُثُلها، تطل من علٍ على الازدهار الزراعي والعمراني والاجتماعي الآخذ في التطور، تَلفُّها هالة من الطمأنينة والأمن والاستقرار.


العبيكان
Obeikan
(٠١) ٤٩٨٣٣٩٢

عن المؤلف



- يعمل حالياً سفيراً للمملكة العربية السعودية لدى سلطنة عُمان.
- مثّل بلاده سفيراً فوق العادة مفوضًا في عدد من الدول العربية.
- عمل وكيلاً لوزارة العمل والشئون الاجتماعية، وقبل ذلك مديراً عامًّا للوزارة.
- سبق أن تقلد مناصب مختلفة.
- شارك في عدة مؤتمرات عربية ودولية كما شارك في دورات الجامعة العربية.
- كتب في معظم الصحف والمجلات المحلية والعربية في الأدب والشعر والاجتماع.

صدر له :

ليديا: ديوان شعر.

على مشارف الطريق: ديوان شعر.

الإبحار في ليل الشجن: ديوان شعر.

دروب الضياع: ديوان شعر.

الحرف يزهر شوقا: ديوان شعر.

ندوب: ديوان شعر.

الدرعية قاعدة الدولة السعودية الأولى : تاريخ.

له من المخطوطات :

القوافي قصائد: ديوان شعر.

الكبرياء في مقالع الرياح: ديوان شعر.

حداء البنادق: ديوان شعر.

ردمك ٨ ـ ١١٩ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠